صدمة الاحتكاك

حكايات الإرسالية الأميركية

في الخليج والجزيرة العربية

١٨٩٢.١٩٢٥

إعداد وترجمة :

خالد البسام

دار الساقي

(بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص. ب:١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف

DAR AL SAQI

London office : ٢٦ westbourne Grove, London w٢ ٥RH

تقديم

كانت الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي خارطة كاملة منسية عند الغرب.

لكن قبل أن تأتي خرائط الجيولوجيا والآلات بحثاً عن «الذهب الأسود» في المنطقة، التي اتسخت رمالها الصفراء الناعمة بالنفط في بداية الثلاثينيات من هذا القرن، قبل ذلك، جاء الكثير من الرحالة الغربيين، منذ نهاية القرن التاسع عشر، ببواخرهم العجيبة وقبعاتهم، الغريبة آنذاك، ينقبون عن أشياء أخرى غير النفط.

وحتى ذلك الوقت البعيد، كانت بلاد الشام ومصر هي الشرق المعروف في اللوحات والكتب والرحلات. غير أن شباناً أميركيين متحمسين للتبشير المسيحي، جازفوا في نهاية القرن التاسع عشر بمغامرات غير محسوبة، وقرروا الذهاب إلى الجزيرة العربية والخليج العربي، لم يمتلكوا، وقتها، سوى نسخ قليلة من الإنجيل وصناديق طبية لمعالجة بعض المرضى.

وتبدأ الحكاية في العام ١٨٨٥، عندما قام الدكتور لانسنج وثلاثة من مساعديه، وهم:جيمس كانتين وصموئيل زويمر وفيليب فيلبس، بتشكيل مجموعة تبشيرية في ولاية نيوجيرسي الأميركية، هدفها نشر الدين المسيحي في بعض البلدان العربية. أما سبب اختيار منطقة الخليج والجزيرة العربية في البلداية، فلخصها المبشر صموئيل زويمر بقوله:

«إن من بين الدوافع إلى العمل في المنطقة، الأسباب

التاريخية. فللمسيح الحق في استرجاع الجزيرة العربية، التي أكدت

الدلائل التي تجمعت لدينا، في الخمسين سنة الأخيرة، أن المسيحية

كانت منتشرة فيها، في بداي عهدها!».

وبجانب ذلك، تحدث مبشر آخر، هو هيوتوماس كير عن «ضرورة التبشير» في المنطقة، عندما قال :

«لقد أرسلنا، لا للوعظ الاجتماعي، ولكن للخلاص. لا للحديث عن الاقتصاد، بل للتبشير. لا للتقدم، بل للصفح. لا للنظام الاجتماعي الجديد، بل للمولد الجديد. لا للثورة، بل للانبعاث الروحي. لا للتجديد، بل للإحياء. لا للإنعاش، بل للبعث. لا للتنظيم الجديد، بل للخلق الجديد. لا للديمقوقراطية، بل للإنجيل. لا للحضارة، بل للمسيح. إننا سفراء، ولسنا سياسيين!».

وبعد عدة سنوات من الاجتماع وحملات التبرع، المادية والعينية، في بعض الكنائس الأميركية، بدأت الإرسالية الأميركية أولى رحلاتها العملية والاستكشافية، في البصرة بالعراق في العام ١٨٨٩تقريباً.

ومن البصرة، راح المبشرون يدرسون المنطقة، ويقومون بجولات متعددة.

ففي العام ١٨٩١، قام صموئيل زويمر بأول رحلة تبشيرية له، وكانت إلى جدة. وفي العام ١٨٩٢، قام أيضاً بأول رحلة إلى منطقة الخليج، عندما سافر إلى الأحساء والمناطق القريبة منها.

ومع ازدياد الرحلات، بدأ الحكايات، وأرسلت التقارير حول إمكانات العمل في الجزيرة العربية والخليج.

وفي هذا الكتاب بعض هذه الحكايات النادرة، التي قمت بترجمتها وإعدادها للقارئ العربي، اعتماداً على نصوصها الأصلية، المنشورة في المجلة الدورية للإرسالية الأميركية «الجزيرة العربية المنسية» (Neglected Arabia). لكنني قمت، في الواقع . رغم المحافظة على النص الأصلي . بإعادة صياغة هذه الحكايات، التي كتبت اصلاً بشكل تقارير أو انطباعات.

ويجد القارئ في صفحات الكتاب حكايات مختلفة، فبعضها رحلات، وبعضها حوادث، وأخرى وصف لمدن أو قرى أو أماكن، لكن جميعها يتحدث، بشكل أو بآخر، عن نشاطات المؤسسة المشهورة «الإرسالية الأميركية» التي كان نشاطها يتداخل ما بين العمل التبشيري والطبي والثقافي والتعليمي والإنساني.

غير أن أهم ما في هذه الحكايات، القديمة والنادرة، التي تنشر اليوم مع صورها الفوتوغرافية الجميلة، هو تصويرها لخفايا كثيرة وقضايا مجهولة ومهمة من تاريخ منطقة الخليج والجزيرة العربية وبلدانها وأهلها وحوادثها، منذ العام ١٨٩٢وحتى منتصف العشرينيات من هذا القرن.

ولهذا، فالحكايات المتناثرة في «الجزيرة المنسية»، هي حكايات للذكرى، وحكايات للعبر، وحكايات من التاريخ لتدلف إلى المستقبل. حكايات بالكلمة والصورة، تحاول إيقاد مصابيح زمن غاب عن عيوننا وذاكرتنا.

خالد البسام

البحرين

الطبيبة اتش. ورال تزور مدينة العمارة العراقية، العام ١٩١٤:

مع بداية العام ١٩١٠، انطلقت أولى رحلات الإرسالية الأميركية من المركز الرئيس لها في العراق، مدينة البصرة، إلى مدن العراق الأخرى.

ومع هذه البدايات، سارت عشرات الحمير والجمال، وقطعت آلاف الأميال، وأبحر الكثير من القوارب الصغيرة في نهري دجلة والفرات، ومعها الصناديق الطبية وعشرات النسخ من الكتب المسيحية، وكلها ذاهبة إلى قرى ومدن جديدة، لم يعرفها رجال الإرسالية من قبل في العراق.

وفي منتصف شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩١٤، سافرت المبشرة والطبيبة الأميركية اتش. ورال إلى مدينة العمارة، الواقعة على نهر دجلة، وكتبت عنها قائلة:

عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، سمعنا بأن باخرة النهر ستغادر البصرة في الواحدة ظهراً. كان السؤال الذي طرحناه على أنفسنا هو:هل نستطيع تجهيز امتعتنا، والركوب في الباخرة خلال ذلك الوقت القصير؟

ولمعرفتنا بأن الأمور لا تسير دائماً ضمن برامج او مواعيد محددة في الشرق، وجدنا أنه في استطاعتنا اللحاق بالباخرة في موعدها. ولم يمض وقت طويل حتى كنا في مكتب التذاكر عند الواحدة، وأخبرنا بان الباخرة لن تغادر إلا بعد ساعتين!

وبالطبع، استغل زوجي فترة الانتظار، فقام باستبدال النقود التركية بالروبيات الهندية. ثم ذهب إلى مبنى الجمارك لاستطلاع إمكانية أخذ بعض الادوية المحتجزة معنا في الرحلة، والموجودة هنا منذ يومين. وكان زوجي قد حاول بشتى السبل والأساليب، في اليومين الماضيين، استخراج هذه الادوية، ولكن دون فائدة، فقد عرف، متأخرا ً، أن يومين من المحاولات ليسا وقتاً طويلاً لاستخراج ما يريده الإنسان من الجمارك التركية في البصرة.

ولكنه حاول، في خلال هاتين الساعتين، عمل كل شيء. وفعلاً، كانت الصناديق جاهزة للاستخراج، وكل ما يحتاج إليه هو مجرد تواقيع فقط. لكن حظه أوقعه في قبضة ضباط أتراك جدد، لا يعرفون أسعار البقشيش المتعارف عليها في الجمارك! لذلك، تخلى في

النهاية عن الادوية، ووجدنا أن الحقائب الطبية الصغيرة، الموجودة لدينا، تفي بالغرض المطلوب.

وكان الأمل في أن يستطيع أحد مساعدي الإرسالية في البصرة، والذي يتابع موضوع الأدوية في الجمارك مع زوجي، أن يستمر في المحاولة، ثم ترسل الأدوية، في اليوم التالي، في الباخرة القادمة.

ومضت الساعتان من الانتظار، ثم أصبحتا أربع ساعات، وكان الجو حاراً ومرهقاً، ولم تكن هناك أي نسمات باردة على الأطلاق، على الرغم من اننا في شهر تشرين الأول / اكتوبر. ولكن في النهاية، وعند غروب الشمس، بدأنا الرحلة إلى العمارة. وطول الطريق عبر النهر، كانت البصرة جميلة، كعادتها، وبدت بساتين النخيل الجميلة، التي أمتلأ بها الطريق، إلى العمارة، رائعة حقاً.

ثم حل الظلام، وجاء وقت العشاء. وعندها، جلسنا نتناول الطعام على ظهر السفينة. ولأننا لم نجد، بعد ذلك، أنواراً أو ضوء القمر، ذهبنا بسرعة إلى النوم.

وعلى الرغم من أن «كابينة» الباخرة كانت صغيرة جداً، ولا تتسع إلا لسرير صغير واحد، إلا أننا ذهبنا في نوم عميق، تخللته أحلام لا تخطر على البال، لم يقطعها سوى زورق الباخرة الصغيرة، الذي ارتطم في زاوية صغيرة عند انعطاف النهر.

وبعد قضاء ليلتين كاملتين، وصلنا إلى المكان المطلوب، إلى مدينة العمارة.

وفي العمارة، تلقي جميع بواخر النهر بمراسيها على الشاطئ بشكل قريب جداً، بحيث يستطيع الإنسان السير على لوح من الحديد، من الباخرة حتى اليابسة.

وعندما نقارن مسألة النزول إلى اليابسة في العمارة بالنزول في البحرين، فسوف نجد فارقاً كبيراً. ففي البحرين، عادة ما يكون البحر هائجاً، بل في بعض الأحيان، تضطر البواخر إلى الرسو على بعد أميال من الشاطئ. وإذا كان البحر هائجاً، فإن ذلك ياخذ وقتاً طويلاً حتى يركب الشخص في قارب محلي صغير. بل عندما يكون الجو حسناً، فإن الوصول إلى شاطئ مدينة المنامة يستغرق ساعة من الوقت. وإذا كان هناك جزر، فإنه يجب امتطاء حمار مع سرج للوصول إلى النقطة المطلوبة. ولكن الوضع في العمارة مختلف. فخطواتك على ألواح الحديد تقودك إلى الشاطئ الجميل مباشرة، ثم تشاهد نفسك وقد وصلت إلى الشارع الرئيس في المدينة، بأمان وسهولة. وفي هذا الشارع، سوف تلاحظ، بلا شك، مئات السكان المتجمهرين، الذين ينتظرون رؤية وصول البواخر إلى المدينة، وهو ما ستعرف مع الوقت أنه الحدث اليومي في العمارة!

وبعد وصولنا، وجدنا أن بيت الإرسالية، لا يبعد سوى دقيقة مشياً على الأقدام. وعندما دخلنا البيت، ذهبنا إلى الطابق العلوي عبر سلم ضيق، أدى بنا إلى غرفة الجلوس، وبسرعة، شعرنا وكأننا في بيتنا.

وقد أمر القسيس ج. بنينجس، الموجود في البيت، طباخة العربي بتقديم الشاي والخبز العربي إلينا بسرعة. بعدها، عرض علينا القسيس، بأدب جم، الذهاب للسكن مع بائع الكتب سركيس. وسررنا كثيراً عندما طلب منا استخدام بيت الإرسالية لعملنا الطبي، أثناء اقامتنا في العمارة.

وما هي إلا أيام قليلة حتى سمع المرضى في العمارة بوصولنا، لذلك جاءوا إلينا بسرعة مرحبين. وبسرعة، انشغلنا بالعمل الطبي. ويوماً بعد يوم، راحت أعداد المرضى تزداد، ولكن مع هذه الزيادة، واجهنا صعوبة في توفير الأدوية، التي راحت تنفذ بسرعة.

وانتظرنا، في الايام التالية، وصول الأدوية من البصرة، بعد استخراجها من الجمارك التركية. لكننا لم نسمع شيئاً عنها. إلا أننا سررنا حينما أرسل إلينا الدكتور بينت بعض الأدوية من مخزونه الخاص.

وفي الواقع، كان مكان معالجة المرضى صغيراً جداً، ولا يستوعب إلا أعداداً قليلة. وأمام ذلك، لم نجد سوى طريقة واحدة للتخلص من هذه المشكلة، تمثلت في إبقاء المرضى الرجال في الطابق السفلي، ثم الطلب من خادم البيت إحضار النساء والأطفال إلى الطابق العلوي لمعالجتهم بأسرع وقت، حتى لا تجبر النساء على الانتظار وسط عشرات الرجال. وكنت أقوم بإعطائهن الأدوية، وقراءة بعض مقاطع الإنجيل، وكن ينصتن باهتمام بالغ. وبعد الانتهاء منهن، يقوم زوجي بمعالجة الرجال، وتستمر هذه العملية طول اليوم.

ووجدت، أثناء عملي، أن معظم حالات المرضى ليست ذات خطر، بل إن بعضهم ليسوا مرضى، بالمعنى المتعارف عليه. ولكن يجب الاعتراف بأن بعضهم يحتاج إلى علاج خاص، وغيرهم يحتاج إلى بعض العمليات. وقد وجدنا أن بعضهم كانوا أصدقاء قدماء لنا، كنا نعالجهم في البصرة. ولهذا السبب، كانوا واثقين بنا، وكانوا تواقين إلى العلاج، وسعداء برؤيتنا. وكان بعض المرضى يستطيعون الدفع، فاستطعنا، خلال ثلاثة أسابيع من العمل الطبي، تجميع مبلغ أربعين دولارا ً، كانت رسوماً للعلاج من القادرين، رجالاً كانوا أم نساء.

وأكثر من ذلك، وجدنا في أهالي العمارة طيبة كبيرة، ومعاملة ودية لا تنسى. وفي الواقع، فقد خططنا لزيارة جميع النساء اللواتي نستطيع القيام بزيارتهن في بيوتهن. وفي أثناء إقامتنا في العمارة، تلقينا الكثير من الدعوات للقيام بزيارة بعض النساء، ولكن وقتنا كان محدوداً جدا ً، فلم نتمكن من قبول سوى القليل من هذه الدعوات.

وفي إحدى المرات، قابلنا امرأة تركية، كانت في ليبيا قبل بدء الحرب بين ايطاليا والثوار، ثم ذهبت إلى القسطنطينية، وتزوجت هناك، ثم تم تعيين زوجها في وظيفة بالعمارة.

وهذه المرأة التركية موجودة في العمارة منذ ستة أسابيع فقط. وهي تستعد، الآن، للمغادرة إلى البصرة، حيث تم تعيين زوجها.

ولديها طفلة تركية جميلة، ورغم محاولاتنا الكثيرة لإقناعها بإدخال الطفلة إلى مدرسة الإرسالية في البصرة، إلا أنها ظلت متخوفة كثيراً حتى لمجرد زيارة المدرسة والاطلاع على فصولها!

وعلاوة على هذه المرأة التركية، وجدنا أن معظم الأهالي، هنا، راغبون بشدة في وجود أطباء من الإرسالية في العمارة باستمرار، وقد أبدى بعضهم رغبته في كتابة عريضة إلى إدارة الإرسالية بالبصرة، تعبر عن هذه الرغبة. ولكننا لم نشجعهم على ذلك، لخوفنا من أن يؤدي رفض الطلب، لأي سبب من الأسباب، إلى إصابة هؤلاء الناس بالإحباط!

المبشرة اتش. ورال في المنامة، العام ١٩٠٧:

ثرثرة نسائية لا تنتهي!

مع بداية مجيء المبشرة الأميركية اتش. ورال إلى المنامة بالبحرين، راحت تمضي معظم وقتها ما بين العمل الطبي والكنيسة.

إلا أنها، مع مرور الوقت، وجدت أن ذلك سيجعل من حياتها في هذا البلد الغريب كئيبة بعض الشيء. لذلك، راحت تحاول التفتيش عن سبل جديدة تجعلها اكثر سعادة. فقامت بزيارة بعض البيوت البحرينية، وكتبت عن إحدى الزيارات بتفاصيل دقيقة، في نيسان / أبريل من العام ١٩٠٧، تقول:

ـ أوه. . . عزيزتي!

تنهدت زهرة وقالت:

ـ يجب أن انهض مبكرة هذا اليوم. فعلي الذهاب للقراءة. كما أن أولاد المدرسة سيكونون هنا في الحال. ليلى، هل تستطيعين الاعتناء بهم اليوم وتدريسهم القرآن؟ وإذا جاءت أمراة الإرسالية، فلا تجعليها تتحدث مع الأطفال طويلاً. واجعلي الأطفال يرددون سور القرآن مرة تلو الأخرى. وإذا كان شقيقنا موجداً، فلا ترحبي بامرأة الإرسالية كثيراً، فستعرف أننا لن نستطيع استقبالها اليوم، ومن ثم لن تبقى طويلاً. ولكن، لا تنسي أن تخبريها بأنني أريد بعض أدوية للحمى، وأدوية للسعال اللعين، الذي يجعلني مستيقظة طول الليل.

لم يكن هذا سوى محادثة جرت في غرفة علوية صغيرة في بيت بالبحرين. وهذا البيت يحتوي على خمس غرف صغيرة، بنيت حول الحوش الرئيس. ففي الطابق العلوي، يوجد

ثلاث غرف كبيرة، ولكنها مظلمة، ورطبة جداً، وغير صالحة للسكن، وتستخدم لحفظ مستلزمات وأغراض البيت، أي كمخازن. وفي واحدة من هذه الغرف، يقع المطبخ مع مكان صغير لإيقاد النار على الأرض، مبنى من الطين. وفي العادة، فإن البيوت تستعمل، هنا، الكثير من الأواني للطبخ.

وتجلس زهرة وأختها في إحدى الغرف، وتنبطحان على فراش من القطن ممدد على الأرض. ولا يوجد في الغرفة شيء آخر، باستثناء صندوقين لحفظ الثياب وكرسي صغير. وجميع الغرف تتشابه، باستثناء واحدة، هي غرفة الجلوس. ففي هذه الغرفة، يوجد الكثير من المخدات والمطارح الصغيرة المغطاة بالقماش الأبيض النظيف، حيث يمكن للضيف الجلوس براحة تامة.

ويجلب الماء إلى البيوت بواسطة السقائين، الذين يقومون بحمل الماء من العيون الصغيرة، ويقومون بصب الماء في أوان طينية كبيرة، يسمونها «حباً». ولكن إذا اضطر أي طبيب إلى القيام بعملية ما في أحد البيوت، فإنه سيجد من الصعوبة الحصول على ماء نظيف لإجراء العملية.

كما أن كل المياه المستعملة في البيوت، تصب في حفرة بالأرض وسط الحوش. وفي بعض الأحيان يمتلئ هذا المكان، فيفيض الماء القذر على الحوش. وبالطبع، فإن هذا يؤثر كثيراً في المنزل وساحته، ويجعل الهواء رطباً، ويعطي البعوض الفرصة للنمو والتكاثر، وكذلك الملاريا، بالإضافة إلى الروائح النتنة. ولعل هذا هو السبب الذي يجعل زهرة وعائلتها يعانون دائماً الحمى.

وبعد تلك المحادثة الصباحية، تقوم زهرة بمناداة ابن أخيها عبد الكريم، قائلة: اذهب، ياعبد الكريم، وسل المعلمة إذا كانت ستحضر اليوم. وعند عودتك، فإن الشاي سيكون جاهزاً، وسأضع فيه سكراً كثيراً كما تحب.

ويرد عليها :حسناً، عمتي.

ثم يذهب ويجد المعلمة مشغولة بتحضير الخبز، الذي تحضره فوق تنور مبني من الطين ومشتعل بنار الحطب. وبعد أن انتهت، قالت لعبد الكريم :كيف حالك؟ أوه. إن الخبز لم ينته بعد، وأمي ليست على ما يرام، ولديّ أعمال كثيرة يجب أن أقوم بها، وعليّ الذهاب إلى مستوصف الإرسالية لإحضار بعض الأدوية لها.

وذهبت زهرة إلى بيت الجيران، وبدأت أحاديث أخرى :

. صباح الخير، أم نجيبة. كيف حالك؟ هل تشعرين بتحسن ؟

أجابت :

. لا . لا أستطيع قول ذلك. فما زلت أشعر بالتعب.

فردت عليها زهرة :

. لماذا لا تذهبين إلى الطبيبة لتعطيك بعض الأدوية ؟

أجابت :

ـ لقد ذهبت من قبل، وشعرت بالتحسن. لكنها أخبرتني، بعد ذلك، بأنه يجب أن أقوم بعملية لكي أتعافى، وأنا خائفة جداً. وقالت لي إنه يجب أن أبقى أسبوعاً أو أكثر في المستشفى، وأرقد على السرير طول الوقت. كيف أستطيع فعل ذلك ؟بل كيف أستطيع أن لا أخاف من المخدر ؟إنني خائفة أن أموت هناك.

ثم قالت زهرة :

. وكيف حال زوجك الكبير في السن ؟

ردت قائلة :

. أوه. إنه مريض جداً. وقد طلبت مراراً من الطبيبة إعطاني أدوية له.

ولكنها قالت لي إن عليه أن يذهب إلى طبيب الرجال.

. ولماذا لا يفعل ذلك؟

. إنه كبير في السن، وأنا لا أستطيع العناية به.

. صحيح من الصعب الاعتناء به، خاصة أنه أعمى، وأنت لا تحصلين إلا على دخل قليل من الخياطة. ولكن لديك الآن شيء ممتاز، وهو زواج نجيبة.

. نعم بالتأكيد، إنني مسرورة لذلك، ولكنها تتصرف بحماقة. . إنني قلقة من أن زوجها سيطلقها في يوم ما.

. على العموم، كيف حال أم عبد الكريم مع زوجها الجديد؟

. أنها محظوظة جداً في حصولها على زوج جديد بسرعة، بعد وفاة زوجها السابق!

. ومتى ستتزوج أم علي ؟

. قريباً جداً. إنها فتاة كبيرة فعمرها أربع عشرة سنة. . من العار ترك فتاة بدون زواج لمدة طويلة.

. حسناً. وداعاً يا أم نجيبة. أتمنى أن تكوني بخير غداً. سأحاول إحضار بعض الأدوية لك.

وتمضي الأحاديث النسائية، كأنها لا تنتهي، في بيوت البحرين !

الطبيب شارون توماس يتحدث عن تجربته

في مطرح بعمان العام ١٩١٢:

مدينة طيبة. . . كأنها الوطن !

على الرغم من أن الطبيب شارون توماس كان عضواً بارزاً في الإرسالية الأميركية، يستطيع في أحيان كثيرة اختيار الأماكن والمهمات لتنفيذ أعمال الإرسالية، إلا أنه كان يفضل عمان دائماً.

فمع بداية هذا القرن، كانت مسقط وبقية المدن والقرى العمانية ساحة لاكتشافات رجال ونساء الإرسالية الأميركية. وبهذه الاكتشافات انشغل الطبيب توماس وانغمس أكثر، لكنه اختار مدينة مطرح لأسباب كثيرة، يشرحها في تقرير كتبه في أيلول /سبتمبر من العام ١٩١٢، يقول فيه:

لقد كنا مسرورين جداً لعودتنا، وأكاد أقول إلى الوطن، إلى مطرح حيث يوجد عملنا. فعندما نلاقي الوجوه المألوفة مرة أخرى، تلك الوجوه التي تعلمنا حبها، فإنه ليس من الصعوبة التفكير في أن هذا الوطن، حتى لو وجدنا أنفسنا مراراً نفكر في العزيزة ميتشغان، كوطن أيضاً.

إنني أعرف أن الكثيرين لم يسمعوا عن مطرح، ويرجع ذلك، جزئياً، إلى أنها مكان عمل جديد نسبياً بالنسبة إلى الإرسالية، وإلى أننا عادة نتكلم عن عملنا الرئيس في مسقط التي تبعد عن مطرح ثلاثة أميال فقط.

وعندما نتحدث عن مسقط ومطرح، فيمكن القول إن مسقط هي عاصمة عمان، وبها يسكن السلطان ويجمع القناصل الأجانب، وبها القنصليات البريطانية والفرنسية والأميركية، ويوجد بها أيضاً مكاتب البريد والبرقيات. ولكن، تجارياً، فأن مطرح، أكثر أهمية من مسقط. فجميع القوافل التجارية تبدأ وتنتهي في مطرح، ويكتظ ساحلها بعشارات القوارب العاملة في التجارة والصيد.

وأتذكر أنه عندما بدأنا عملنا الطبي والتبشيري والرحلات إلى داخل عُمان، كان على العاملين في مسقط المجيء إلى مطرح بواسطة الحمير أو الجمال، ومنها يبدأون رحلاتهم، وفيها يستريحون بعد عودتهم من عناء الرحلات الطويلة والمملة في الجبال.

وفي الواقع، يمكن كتابة الكثير عن مدينة مطرح، لكنني سأكتب هذه المرة عن الناس فيها.

إن أهالي المدينة ينقسمون إلى ثلاث فئات متباينة جداً، وواضحة لأي مقيم أو زائر. وهذه الفئات هي :العرب، وهم المواطنون من عمان ومن زنجبار. البلوش من بلوشستان. ثم الهنود المعروفون ببشرتهم السمراء.

وفي الواقع، فإن العرب هم أفضل الفئات التي تعيش هنا. كما أنهم أفضل الأجناس ودية، ويمكن العمل معهم.

وعلاوة على ذلك، فهم كرماء إلى أبعد الحدود ويقدرون كثيراً الأعمال المفيدة في مدينتهم. والكثير من النساء العربيات في مطرح لا يلبسن الحجاب، وقد وجدناهن متفتحات بنسبة تفوق كثيراً تفتح النساء العربيات في بلاد عربية أخرى، كما أنهن يتمتعن بالذكاء.

أما البلوش، فهم أفقر طبقة في مطرح، إذ معظمهم يعملون كحمالين. والعمل وسط البلوش مريح جداً، خاصة إذا كانوا يعرفون اللغة العربية، ولكن الكثير منهم لا يعرفونها.

وفي الحقيقة، فإن العمل بالنسبة إلينا في مطرح، ليس هو بالعمل الصعب الشائك، ولكنه ليس بالعمل السهل أيضاً.

ويتكون عمل الإرسالية في مطرح من مستوصف صغير، ويعمل معي اثنان من المساعدين من أفغانستان، لديهما روح تبشيرية كبيرة. ونتوقع، خلال فترة قليلة، وصول مساعد ثالث من مسقط، كان يعمل بائعاً للكتب، لبعض الوقت. وقد تعرفت إليه في مسقط، وهو شاب متحمس جداً، ويعمل بنشاط ملحوظ. وبعد عودتي إلى مطرح، عرفت أنه سافر إلى البصرة، وتزوج. لكنه عاد إلى مسقط في صحبة عروسه، وهي فتاة صغيرة، متخرجة في مدرسة الإرسالية الأميركية في مدينة الموصل بالعراق.

ومن الناحية الطبية، فإنني أعتبر مطرح أفضل مركز عملت فيه. فالناس يبدون إيماناً كبيراً بنا، وبدورنا وبأدويتنا، كما أنهم يظهرون استعداداً جيداً لتتبع إرشاداتنا في العلاج عندما يكونون مرضى. وفي معظم الأيام، فإنهم يأتون إلينا بأعداد كبيرة.

وفي الوقت الحاضر، نقوم في هذا المستوصف الصغير في مطرح بمعالجة ما بين سبعين إلى ثمانين مريضاً في اليوم، ويزداد العدد مع الوقت.

وعلاوة على ذلك، فنحن نتوقع أن يتضاعف العمل الطبي مع بداية الصيف، وذلك لأن الكثير من العمانيين يأتون إلى مطرح من مدنهم وقراهم للعلاج.

المبشر جيمس كانتين يكتب عن مدرسة أولاد العبيد المحررين

في مسقط، العام ١٩٠٦ :

تلاميذ الحرية في موانئ العالم !

لم يكن تأسيس مدرسة أولاد العبيد المحررين في مسقط، العام ١٨٩٦، مشروعاً مخططاً له من قبل الإرسالية الأميركية. فقد بدأت عملها مصادفةً، عندما استطاع ١٨ ولداً عمانياً النجاة من العبودية التي لم تكن انتهت، آنذاك، في منطقة الخليج، رغم الكثير من الاتفاقيات والمعاهدات.

وبعد مضي عدة سنوات على تجربة هذه المدرسة، كتب المسؤول عنها، المبشر المعروف جيمس كانتين، في مجلة الإرسالية، العام ١٩٠٦، قائلاً :

لقد انتهى الوقت الذي كانت فيه مدرسة أولاد العبيد هي أبرز حزء في التقارير التي نكتبها عن عمل الإرسالية في مسقط. ففي الفترة الأخيرة صار لا يشار إلى المدرسة إلا نادراً.

لكن لهذه المدرسة ولتلاميذها أكثر من حكاية تستحق أن تروى، خاصة لهؤلاء الذين لا يعرفون عنها شيئاً.

ففي نهاية العام ١٨٩٦، وصلت إلى ميناء مسقط سفينة حربية إنكليزية. وكانت تحمل على ظهرها، بجانب الجنود والبحارة طبعاً ١٨ ولداً صغيراً أسود. وكانت أعمارهم تراوح من ٧ أعوام إلى ١١ عاماً، تم إنقاذهم من سفينة تاجر رقيق، كان ينوي بيعهم في احد الموانئ بالخليج.

وحال وصولهم إلى مسقط، أحضرتهم القنصلية الإنكليزية إلى مبنى الإرسالية، وطلبت منا العناية بهم وتعليمهم.

وعلى الفور، قدم مسؤول الإرسالية، المبشر بيتر زويمر، لهؤلاء المشردين الصغار والمرضى والمرعوبين، كل العناية اللازمة ومنحهم بسرعة كل الاطمئنان والأمان اللذين يحتاجون إليهما.

وقد كان الاتفاق مع القنصلية ينص على أنه يجب إطعام وإكساء وتعليم هؤلاء الأولاد، حتى يصلوا إلى سن السادسة عشرة، أو إلى سن يكونون فيها كباراً بما فيه الكفاية، لكي يستطيعوا الاعتماد على أنفسهم واختيار الحياة التي يرغبون فيها.

وبالفعل، مضت على تلك البدايات سنوات قليلة، استطاع فيها هؤلاء الأولاد إنهاء دراستهم، وأصبحوا رجالاً متحضرين، وكل ذلك بفضل إخلاصهم وتفانيهم وحماستهم، ودعواتنا الدائمة لهم.

وبعد أن كبر هؤلاء الاولاد، وأصبحوا شباباً، اختار كل واحد منهم البلاد والعمل اللذين يريدهما. ورغم توزعهم وابتعادهم عنا لفترات طويلة، إلا أن أخبارهم لن تنقطع عنا. فقط احتفظت مع الكثير منهم بمراسلات متفرقة، ساعدتني على معرفة أحوالهم وما حدث لهم بعد انتهاء دراستهم في مسقط.

ومن بين ١٨ ولداً، مات أربعة. اثنان في مسقط وقبل إكمال تعليمهما، الأول بسبب الكوليرا، والثاني بسبب الهزال.

أما أكبرهم، وهو صموئيل، فقد مات وهو يعمل في السفينة الحربية الإنكليزية بالقرب من شواطئ كولومبو، وحدث الشيء نفسه لبيتر، الذي مات في سفينة حربية في جنوب أفريقيا.

ومن التلاميذ الذين أتذكرهم الآن، ثلاثة كانوا من كبار الأولاد وهم :جيمس، سليمان، توماس.

وقد رأيت جيمس، قبل فترة، قرب شاطئ مسقط. وبالكاد استطعت معرفته. فقد أصبح لديه قامة رجل، وأضفى عليه اللباس الأزرق شخصية مختلفة. ففي الماضي، كان جيمس شخصاً بدائياً وعنيداً، ويبدو أنه الآن، قد تغير كثيراً، بعد قضائه وقتاً طويلاً مع عائلة هندية مسيحية ممتازة في الهند.

وبعد زيارته القصيرة لمسقط، كتب لي قائلاً :

«إننا نصلي لله كل يوم في بيتي ببومبي أن يحفظ الإرسالية. كما إننا لا نزال نتذكر والدنا بيتر زويمر، الذي حزنا جداً لوفاته في نيويورك بأميركا. إننا نصلي من أجله كل يوم أيضاً».

أما «سليمان»، فهو يعمل في بارجة بريطانية، تجوب آسيا. وفي الإجازات، يسكن مع عائلة مسيحية في بومبي. وهو عادة يكتب ويخبرنا بكل ما يفعل، ويسألنا أيضاً، في كل مرة، عن أخبار مسقط وأخبار الإرسالية. وفي إحدى رسائله، كتب يقول :«لا تظن أنني نسيت الدين المسيحي. فأنا ما زلت مع المسيحية. وأحتفظ معي بالإنجيل وكتاب المزامير دائماً». ويكمل :«أرجوك، يا سيدي، لا تحاول أن تنساني إنني لا أزال ابنك الذي تعرفه منذ زمن طويل (وليم سليمان) ابن الإرسالية».

وبجانب هؤلاء الأولاد الثلاثة، هناك الفرد وجورج اللذان يعملان في بواخر تجارية، تعمل ما بين الهند وبريطانيا. ولكنني لم أسمع أي أخبار عنهما منذ فترة.

أما فيليب، الذي عاش عدة سنوات مع إحدى العائلات المسيحية في البحرين، فقد زارنا مؤخراً في مسقط، وهو في طريقه إلى الهند. وقد أخبرني بأنه جمع بعض المال من عمله، وأنه ينوي استغلاله في عمل مفيد في الهند.

وفي خصوص ناثان وإسحاق، فلا أعرف عنهما شيئاً في بومبي. لكنني سمعت مؤخراً شائعات تتحدث عن أنهما رجعا إلى الاسلام، لكنني واثق أن هذا غير صحيح !!

وجوزيف، الذي كان يقلقنا كثيراً عندما كان في المدرسة أكثر من أي ولد آخر، عمل لعدة سنوات كخادم عند عائلة مسيحية في بومبي، وعرفت أنه يعيش حياة مستقيمة.

وآخر ما سمعت عن جون أنه في زنجبار. أما ديفيد، فهو في طريقة إلى أستراليا. ولا يزال أدريان، الذي كان أصغر تلاميذ مدرسة مسقط، يدرس في المدرسة الصناعية بالهند. وقد

عرفت أنه يحقق نتائج ممتازة في دراسته، كما أنه متقدم على الكثير من التلاميذ في قسم النجارة، وهي المهنة التي اختارها لنفسه بعد التخرج.

وبقي من تلاميذ مدرسة أولاد أحرار العبيد في مسقط اثنان :هنري وستيفان وهما معنا في مسقط حتى الآن.

وبالنسبة إلى هنري، فقد منعه عدم السمع من إكمال دراسته والسفر إلى الخارج. ولذلك، فقد كان من الصعوبة إيجاد مكان مناسب له، ولهذا بقي معنا في بيت الإرسالية ولا يزال حتى الآن. ورغم أن هنري ولد طيب وعامل مخلص، إلا أن هذه العاهة ستجعل حياته صعبة.

وعلى عكس هنري، فإن ستيفان يعمل منذ فترة طويلة في المستوصف الإنكليزي بمسقط، ولا يعاني اي مشكلات.

الطبيب بول هاريسون يتجول في الاحساء، العام ١٩١٩ :

لا أحد يفكر في السرقة. . ابن جلوي هنا !

كانت منطقة الأحساء في الجزيرة العربية أحد الأماكن المفضلة لدى طبيب الإرسالية الأميركية بول هاريسون. وبسبب هذا التفضل، كان يقوم بزيارتها بين فترة وأخرى. مرة للعلاج، ومرات لكتابة التقارير عنها، ومرات أخرى للتبشير غير المعلن.

وفي شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩١٩، قام هاريسون بزيارة إلى الأحساء، وكتب عنها يقول :

لقد انتهى الوقت الذي كانت الأحساء فيه تحكم بواسطة الأتراك. فالناس هنا اصبحوا ينظرون إلى تلك الفترة على أنها أيام مظلمة.

وفي الحقيقة، فإنه من الصعوبة تصور الوضع الصعب للأحساء، وخاصة بالنسبة إلى التفكير الغربي. فالحكام الأتراك كان لديهم طموح واحد وهو إثر أنفسهم. وفي هذا المجال، يمكن القول إنهم نجحوا بمشقة. وبجانب الأتراك، فإن البدو الجوعى في الصحراء، كانت لديهم الرغبة في ذلك أيضاً، ولكن لأسباب مختلفة. وجميعهم . البدو والأتراك . حققوا نجاحاً شاقاً، ولكن على حساب حياة الناس الفقراء في الأحساء، الذين يعيشون وسط بساتين النخيل، وفي ظل عبودية قاسية.

وحتى سبع سنوات مضت، كانت هذه الحالة هي الوضع المسيطر في الاحساء. لكن خروج الأتراك ومجيء حكم آل سعود غير الوضع تماماً.

ففي أيام الأتراك، كان سكان الأحساء ينهبون ويسرقون ويقتل بعضهم بعضاً، والأغنياء يضطهدون الفقراء. وكان بدو الصحراء . الذين يعتبرون أرواحهم من أرخص الأشياء في الدنيا . يعتبرون الأحساء مصدراً رئيساً لرزقهم، ومن الأماكن السهلة للنهب والسرقة.

وقد لاحظت التغير الكبير في الاحساء بنفسي. ففي رحلتنا الأخيرة، التي قطعنا فيها الصحراء لمدة خمسة ايام، لم يكن معنا أي حارس أو جندي، رغم أن قافلتنا كانت كبيرة نسبياً.

لكنني شعرت بالتغير والأمان الكبيرين عندما ضرب أحد المراقبين بعصاه على حمولة أحد الجمال، التي تتكون من ٤٠ ألف روبية فضية، وسمعنا النقود وهي تخشخش ويصطك بعضها ببعض.

وبسرعة، التفت إلينا قائد القافلة قائلاً :لا أحد يفكر في سرقة أي شيء الآن، منذ أن أصبح ابن جلوي حاكماً هنا.

وأكمل :لقد تضاعفت قيمة تمور النخيل ثلاث مرات أكثر مما كانت أيام الأتراك. وازداد بيعها مرات كثيرة، وازدهرت تجارة البلاد ازدهاراً كبيراً.

وبجانب كلام قائد القافلة، فإن الأحساء أكثر المناطق المرشحة للازدهار، لأنها البقعة الخضراء لكل الجزيرة العربية، وكل ما تحتاج إليه هو حكومة جيدة.

وفي أحد الايام، كنا نراقب مشهداً غير مألوف في مجلس حاكم الأحساء، ابن جلوي.

فقد دخل أحد البدو، وقال لابن جلوي بدون مقدمات :لقد رايت كيساً من القهوة ملقى في الشارع قبل مجيئي إليكم.

وفي الحال رد عليه الحاكم:

. ولكن كيف عرفت أنها قهوة ؟

أجاب :

. ضغطت على الكيس بإصبع رجلي الكبيرة، لكي أعرف ما فيه. فعرفت أنها قهوة.

وقال ابن جلوي :

. حينما ترى كيساً ملقى في الطريق، يجب عليك أن لا تضع إصبعك عليه عليك أن تتركه وحده.

ثم قال لخادمه :

. اذهب واحضر مرزوقاً.

وحضر الجلاد بدون أي تاخير وقال الحاكم:

. إقطعها.

ومنذ ذلك الوقت فقد البدوي إبهام رجله !

إنني ما زلت أتذكر أول مرة قابلت ابن جلوي، الشخصية اللافتة للنظر. فقد سمعت عنه الكثير، وكانت مقابلتي الأولى له مثيرة. وخرجت منها مسروراً. في البداية، كان غير موافق

على حضوري إلى الاحساء، وأعتقد أنه كان خائفاً مني بعض الشيء، مثلما كنت أنا ايضا خائفاً منه. ولكن بعد ذلك، أصبحنا، أنا وهو، صديقين، وأعجبت به جداً.

ولم تجلب طريقة ابن جلوي في الحكم النظام والأمن للاحساء فقط، بل الازدهار الاقتصادي ايضا. وقد شاهدنا ذلك عملياً.

فيوم الخميس، هو يوم سوق كبير في الاحساء. وإليه يأتي سكان جيمع القرى الخارجية. ومن الواضح أن جميع رواد السوق مصممون على بيع أي شيء وشراء اي شيء أيضاً. إنه مشهد رائع وفاتن، ويصعب وجود مثيل له في أي مكان بالجزيرة العربية. وعلاوة على ازدحام السوق بالناس، فهو ايضاً مليء بنوعيات مختلفة من البشر، حيث يأتي إليه مزارعو النخيل وبدو الصحراء والتجار المقيمون والمسافرون وغيرهم.

وبجانب مشاهداتنا وزياراتنا لابن جلوي، كان عملنا الطبي يسير سيراً جيداً. فقد كان اختيارنا لأحد البيوت أحد أسباب النجاح. ورغم أن البيت كان صغيراً، إلا أنه كان يكفي لإقامة خمس عائلات. وقبل أن يمضي أسبوعان على إقامتنا، كان عدد المرضى يتجاوز الأربعين شخصاً. وفي أحد الايام، قام الحاكم ابن جلوي بزيارتنا بنفسه، وأبدى إعجابه بعملنا، وبالطبع، فقد أعطت هذه الزيارة دفعة قوية لعملنا بين الناس.

وشخصية حاكم الأحساء ليس بها غموض. فابن جلوي يجلس في مجلسه، وحده، وهو أعزل تماماً بدون حراس أو حاشية.

وقد اندهشت جداً، في إحدى الليالي، بمجلسه، عندما استمعت إلى جدل سريع بينه وبين أحد البدو. ففي تلك الايام، كانت تدور حرب طاحنة بين ابن سعود وشريف مكة. وكان ابن جلوي يعاتب البدوي على موقف قبيلته من تلك الحرب. وجرت بينهما مناقشة ساخنة، حسمها ابن جلوي، بعد فترة.

وعين ابن جلوي حاكماً للأحساء قبل سبع سنوات مضت. استطاع خلال هذه الفترة إقامة حكومة جيدة وقوية. لكنه، ومنذ تعيينه، لم يطلب إجازة، وإن قصيرة، ولم يغادر العاصمة ولو ليوم واحد. مرة واحدة فقط غادرنا للترحيب بابن سعود، الذي جاء لزيارة الأحساء. ولكن ذلك لم يستغرق سوى خمس دقائق فقط.

المبشر ستانلي ميلري في صحراء الكويت، العام ١٩١٧:

مهمة إنقاذ. . . وسط مناظر جميلة !

لم يكتف مبشر الإرسالية الأميركية ستانلي ميلري بعمله الطبي والتبشيري في الكويت، بل كان يقوم، في بعض الأحيان، باعمال أخرى تحقق له بعض ما يريد من الاكتشاف والمتعة.

وفي بداية كانون الأول /ديسمبر من العام ١٩١٧، وجد أن فرصة إنقاذ صديقه الكولونيل آر. أي. آتش، المريض في الصحراء الكويتية، فرصة كبيرة له، لا تعوض لرؤية الصحراء على الطبيعة والدخول في مغامرة جديدة غير مألوفة. فكتب عنها قائلاً:

لقد كانت ليلة شتائية باردة في الكويت. وكنت، وقتها، جالساً أمام نادر دافئة جميلة، عند الساعة الثامنة والنصف، حينما سمعت قرعاً صاخباً على باب بيتي. وفي الحال قلت في نفسي:

. من يا ترى هذا المريض الآن؟

وفي لحظات، فتحت الباب، ففو جئت ببدوي يمتطي جملاً، نزل عنه وأعطاني رسالة، قائلاً وهو يلهث:أسعدت مساء. لقد احضرت لك رسالة من الكولونيل. وقد جاءت لتوها من الصحراء، من قبل مبعوثين من الشيخ الحاكم.

وأتذكر أنني أجبته:

ـ رسالة من الكولونيل!نحن نتوقع رجوعه إلى هنا منذ بضعة أيام، ولكننا لا نعرف بالضبط كيف سيحضر. هل كان يريد إخباري بأنه سيصل قريباً؟ربما!

وفي الحال، فتحت الرسالة وقرأت:

١٣ كانون الأول /ديسمبر ١٩١٧

عزيز ميلري

اثناء عودتي، مرضت فلم أستطع مواصلة الطريق. فقد أصابتني حمى قبل خمسة أيام، وأشعر بتعب فظيع من الزكام والارتجاف. ربما تستطيع الحضور لمقابلتي ومساعدتي في «الصبيحية» أو في الطريق.

إنني قلق من عدم تمكني من الحضور إلى الكويت، حيث أصبحت أكثر تعباً. إن الحمى لا تغادرني مطلقاً. هل تستطيع إرسال بعض الإنكليز إلى إذا لم تحضر أنت؟أحضر معك خيمة صغيرة.

المخلص لك

آر. اي. آتش.

وفور انتهائي من قراءة الرسالة، كان انطباعي أن الكولونيل وحيد في الصحراء، ولا طبيب معه. كما أن الصحراء، وفي هذا الشتاء، مسألة صعبة جداً.

وقلت لحامل الرسالة:

. يجب أن أرى سكرتير الشيخ. انتظرني لحظة لأجلب قبعتي.

وفي خلال دقائق قليلة، كنا في طريقنا إلى بيت سكرتير الشيخ.

وبعد السلام والتحية المعتادين، قلت له:

. حسناً. متى يمكننا أن نبدأ؟

أجاب بتلقائية:

. أوه. . . بعد غد.

قلت منزعجاً:

. بعد غد ! إن الكولونيل مريض. . ويجب أن نغادر غداً صباحاً.

أجاب السكرتير:

ـ إنني قلق من أننا لن نستطيع القيام بذلك. فالجمال يجب إحضارها وأن تكون مستعدة، وكذلك الخيام والمؤن وغير ذلك.

عند ذلك قلت:

. هل يمكنني رؤية الشيخ؟

أجاب:

. يمكن الذهاب إلى القصر، ولكن في هذه الساعة، هو نائم بالتأكيد.

وعندها وجدنا أن الشيء الممكن هو رؤية الشيخ في الصباح الباكر، مع الاستعداد وتجهيز كل شيء للرحلة.

وفي الصباح، استقبلني الشيخ مؤكداً أن لاكولونيل ليس مريضاً جداً. لكنني طلبت من الشيخ بدء الرحلة فوراً. فأجابني:

. يمكن البدء متى ما رغبت في ذلك.

وبعد دقائق من لامحادثة وشرب القهوة، غادرت مجلس الشيخ تاركاً تعليمات للقافلة بالحضور إلى منزلي حالما يكون كل شيء جاهزاً.

وفي العصر بدأنا الرحلة خارج الكويت وكانت قافلتنا تحتوي على ١٢ جملاً وعشرة رجال، إضافة إلى الرجلين اللذين أحضرا الرسالة من الكولونيل، وهما شخصان ممتازان في معرفة الصحراء وإرشاد القوافل.

وفي الطريق تحدثت معها وسألتهما:

متى تركتما لاكولونيل ؟فقالا :منذ يومين. فقد سرنا ليلة واحدة. يا الله! كانت رحلة متعبة جداً. فالسماء تمطر، والبرد والرعد والبرق، وتمنينا الموت حينها. ثم تحدث عمر قائلاً :غادرت معسكر الكولونيل ومعي جمل ممتاز ووصلت الكويت بلا شيء. لقد انتهى بسبب الرحلة الملعونة.

أما صديقه فقال:

. لكن جملك لم يكن قوياً. انظر إن جملي لم يشعر بأي تعب، إنه ذاهب مرة أخرى، إلى أبعد من ذلك. وسنقوم برحلة ربما في ظروف أسوأ من تلك، ومع ذلك فلن يصيبه مكروه. ثم راح يربت على الجمل بعصاه، بينما كان يفاخر به.

وبعد خروجنا من مدينة الكويت، توقفنا عند أحد الآبار لملء قرب الماء. وقد استغرق ذلك حوالى نصف ساعة. ثم مضينا حتى اقتربت الشمس من الأق، وحتى اختفى البحر من المشهد.

وكنت قد طلبت من الشيخ خيمة صغيرة، ولكن خيمتين كبيرتين هما اللتان تم توفيرهما. الأولى جهزها الرجال لكي أقيم فيها في الليل. وبشكل متقن، أصبحت هناك خيمة ملاصقة للاخرى وبشكل جميل، وكأنهما من الخيام النموذجية التي يشتريها السياح من القاهرة.

وحالما النتصبت خيمتي . التي أقيمت بسرعة اندهشت منها . قام الرجال بوضع باب الخيمة الوحيد. وفي الوقت نفسه تجمع بعض الرجال حول أكوام من أغصان الصحراء، وأوقدوا النار التي انتشر لهيبها في السماء بسرعة. وكان من الممتع رؤية الرجال وهم يضعون أرجلهم العارية فوق النار من دون أن يصيبهم أي ضرر.

وقد لفت نظري أغصان الصحراء، إذا وجدتها احتياطاً عجيباً وممتازاً للطبيعة. فهذه الأغصان يمكن ان تجدها تنمو في كل مكان تقريباً في الجزيرة العربية. وهي يمكن أن تكون زاداً من العشب والكلأ للجمال، وحطباً للنار. وهي في الكويت الاكثر شعبية والأكثر شهرة لإيقاد النار.

وفي أوقات الراحة، راحت الجمال تقتنع بوضعها، وتأتي راكضة إلى المعسكر لأخذ وجبتها المسائية من التمر. ولكنها بحركاتها المزعجة، كانت تسقط حبال الخيام، وتركض في كل مكان، والنتيجة حصولها على الشتائم التي تمطر عليها. وبعد فترة، نراها وقد اضطجعت على الأرض أمام الرجال. وفي الصباح، كنت استيقظ على صوت طحن القهوة. وبعد تناول الإفطار وتجميع الخيام، انطلقنا مرة أخرى في الجو البارد.

وكان الجميع سعداء عندما أشرقت الشمس، وأعطت الجميع بعض الدفء الذي يحتاجون إليه.

وقبل المغرب بقليل، اقتربنا من الصبيحية. ومضينا في السير حتى الصباح، حين لمحنا من بعيد وإلى يسارنا قافلة متوقفة عند الآبار.

وعندها صاح الرجال:هذا فريق الكولونيل، إن شاء الله! وبسرعة، هرولوا بالجمال نحو المكان. ومع أنني لم أكن مطمئناً إلى ذلك بسبب ان القافلة كانت صغيرة جداً، إلا أن ذلك كان سبباً لجلب التفاؤل. ولكن لم يكن البدو الذين وجدناهم هم قافلة الكولونيل!

وفي الليل، تغير الجو وواجهنا عاصفة رعدية مصحوبة ببرق. وعند الصباح، جاء إليّ الخادم وسألني عن إمكانية قضاء بقية الليل في خيمتي، لأن خيمتهم وفرشهم غرقت بمياه الامطار.

وجاء الصباح بارداً، وكان كل ما حولنا مجرد برك من الماء. وقد خطر لي أن هذا المطر هو حظ جيد للكولونيل، إذ إن معسكره بعيد جداً عن الماء والآبار.

ورغم كل شيء، بقينا فترة من دون أن نسمع أخباراً عنه. ولكن بقت الصحراء هي المتعة الوحيدة. فمنظرها يبدو رائعاً للشخص الذي لم يألفها من قبل.

وقبل توقف قليل، بعد مشي طويل، شاهدنا من بعيد قافلة. وللمرة الأولى، أحسست أنها الهدف الذي نبحث عنه منذ فترة. وقد كنت آسفاً لأنني لم أحضر المنظار معي.

وعندما اقتربنا منها، كانت القافلة تحتوي على خمسين جملاً، إضافة إلى حصانين.

وعندما وصلنا إلى القافلة، حاولت التعرف بالكولونيل، ولكنني رغم كل المحاولات، لم أستطع. وفجأة سمعت صوتاً ضعيفاً يقول لي، وسط مجموعة من العرب الجالسين:

ـ لقد كان عملاً طيباً للغاية أن تأتي إلي. متى غادرت الكويت؟

وفي الحال، أجبت الكولونيل:

ـ منذ ثلاثة أيام.

وكان تعليقه :

ـ لا بد أنك قمت بعمل رائع.

وكل ما فعلناه عند الوصول، هو القيام بنصب خيمتينا والاستراحة، ثم تناول غداء ممتاز مع الكولونيل بمناسبة الكريسمس الذي صادف يوم وصولنا.

المبشر جيمس كانتين يكتب عن التعليم في مسقط العام ١٩٠٦:

المدرسة تعاني. . . وفاة المدرسين

احتل العمل التعليمي أهمية استثنائية لدى الإرسالية الأميركية في مسقط منذ فترة مبكرة، أي منذ العام ١٨٩٤ تقريباً. وتمثلت هذه الأهمية في المدرسة التي أنشأتها الإرسالية في ذلك الوقت.

وقد كتب المبشر المعروف جيمس كانتين موضوعاً عن مدرسة مسقط في نهاية العام ١٩٠٧، يقول فيه:

منذ حوالى سنة ونصف السنة، بدأت محاولات جديدة لتنظيم الدراسة في مدرسة مسقط. ولكن جميع هذه المحاولات اصطدمت بمشكلة رئيسة هي التغير المفاجئ للمسؤول عن المدرسة.

فبعد ما انتظمت الدروس في المدرسة انتظاماً جيداً تم تسليم إدارتها إلى أرملة بائع كتب للإرسالية سابق، وهي خريجة المدرسة الثانوية للإرسالية الاميركية في مدينة «ماردن» بتركيا.

لكن، بعد شهور قليلة، توفيت فجأة، ووجدنا صعوبة كبيرة في إيجاد مسؤول للمدرسة. وبعد بحث شاق، استطعنا الحصول على مدرس هندي متعلم، يعيش في مسقط. وقام هذا الشخص بأعمال ممتازة، لأشهر عدة، ولكنه غادرنا بسبب حصوله على وظيفة أخرى.

وبعدها، استلم قيادة المدرسة مسلم هندي، بقي شهوراً قليلة، ثم مرض، فمات. والآن، لدينا مدرس جيد، لدينا ثقة كبيرة بأنه سيبقى مسؤولاً عن المدرسة مدة طويلة، ولن يرحل أو يموت كغيره، واسمه ملاليم إبراهيم، وهو خريج تركيا. وقد عمل قبل مجيئه إلى مسقط موظفاً في مدرسة الإرسالية في بغداد.

بعد انتهاء مشكلتنا مع تغير المدرسين ووفياتهم المفاجئة، أعددنا خططاً جديدة للمدرسة.

فإلى جانب المادة الرئيسة التي تدرس في المدرسة، وهي اللغة الإنكليزية، بدأنا بتدريس اللغة العربية أيضاً، بقواعدها ونحوها. ففي الواقع، هناك أعداد قليلة من الناس في مسقط تعرف قواعد وأصول اللغة العربية.

وتواجهنا أيضاً مشكلة أخرى، على الرغم من أنها أقل أهمية من وفيات مسؤولي المدرسة، وتتمثل في تنظيم صفوف المدرسة. فبسبب العادات المختلفة بين سكان مسقط، واختلاف الثقافات واللغات وغيرها، ووجود خليط من الاجناس المختلفة، مثل الهندوس والفرس والعرب وغيرهم، فإن تمثيل جميع هؤلاء في المدرسة هو مشكلة بسبب الاختلاف في اللغات.

وإلى جانب اللغتين الإنكليزية والعربية، نقوم بتدريسهم بعض الدروس في الحساب والجغرافيا، وباقي الوقت يخصص لتعليم التلاميذ القراءة والكتابة.

وتفتتح المدرسة دروسها وتختتمها بقراءة الإنجيل والصلاة المسيحية. وحتى الآن، لم نسمع أي اعتراض على ذلك من قبل أولياء الأمور.

وفي الواقع، إن أعداد التلاميذ لا يمكن المفاخرة بها على الإطلاق. فقد بلغوا في الشهر الماضي ١٢ تلميذاً فقط. لكننا نامل، مع انتقالنا إلى مبنى المدرسة الجديد في سكن الإرسالية، الذي سيعطي المدرسة جاذبية جديدة، نأمل في أن تزيد أعداد التلاميذ.

وإذا أردنا التحدث عن نوعيات التلاميذ الموجودين في المدرسة، فسنقول إن اثنين منهم من المسيحيين. أحدهما ابن عائلة بائع كتب مسيحية في مسقط. أما الثاني فهو ابن مترجم في القنصلية البريطانية. وأحد التلاميذ الهنود يعمل والده في جمارك مسقط.

وآخر يعمل والده خادماً في القنصلية الأميركية وهذا الأب غاضب علينا دائماً لأن ابنه لا يعرف كيف يتحدث مع «الصاحب» (يقصد التحدث بالإنكليزية مع الأجانب).

ولكن، وبشكل عام، إن معظم التلاميذ فقراء، ويجب أن نعتبر ذلك، بالتالي، تضحية كبيرة من أولياء أمورهم، الذين فضلوا تعليمهم على اشتغالهم معهم، سواء في الأعمال التي يقومون بها أو في دكاكين السوق، حيث يعمل بعضهم ولا يحصلون سوى على نقود قليلة جداً من تلك الأعمال المضنية.

وعلى الجانب الآخر من المدرسة، هناك قسم للفتيات، تقوم بالإشراف عليه السيدة أليزابيث كانتين. وفي هذه الصفوف، يتم تدريس اللغتين الإنكليزية والعربية إلى جانب تعليم الخياطة والتطريز. ومتوسط حضور الفتيات في المدرسة هو ما بين خمس إلى ثماني تلميذات.

ومعظم ما قلناه عن التلاميذ، ينطبق على التلميذات أيضاً. ولكن هناك صعوبات خاصة في فصول الفتيات، وهي تتركز في الفتيات أنفسهن، وأولياء أمورهن من جانب أخر.

وعلى الرغم من الصعوبات التي لا تنتهي هنا وهناك، إلا أن هناك بذور أمل أيضاً.

فقبل شهر واحد، دعينا إلى حضور حفلة أقامها زعيم الجالية الهندية في مسقط، لمناسبة أحد الأعياد الدينية لديهم. وفي إحدى الفقرات الموسيقية التي قدمت، فوجئنا بطلاب مدرستنا المشاركين في الحفلة وهم يغنون بعض الأناشيد التي تعلموها في مدرستنا.

الطبيب بول هاريسون يفتتح عيادة في الرياض، العام ١٩١٧:

زيارة نجد حلم انتظرناه طويلاً

لم يكن أمام الإرسالية الأميركية في البحرين، عند نهاية شهر آب/أغسطس ١٩١٧، خيار سوى تلبية الدعوة التي وصلت من عاصمة نجد «الرياض»، التي تطلب القيام ببعض الاعمال الطبية.

وقتها، كان الحلم والأمنية الغالية لأي طبيب أو مبشر في الإرسالية، الذهاب إلى نجد، وزيارة هذا المعقل الحصين. وهكذا، جاءت الدعوة لتحقيق الحلم الذي طالما انتظره الطبيب بول هاريسون. وكتب عن تحقيق هذا الحلم في مجلة الإرسالية قائلاً:

هذه الدعوة المفاجئة حقاً، جاءت نتيجة الأعمال الطبية التي قامت بها الإرسالية طول السنوات الماضية، في مدن وقرى الأحساء، والسمعة الطيبة التي حصلت عليها نتيجة لذلك. وإضافة إلى ذلك، فقد وجدنا أنها ستكون بداية لعملنا المرجو في وسط الجزيرة العربية.

ولكن هذا، تم الاستعداد للقيام برحلة الرياض في غضون ٤٨ ساعة فقط، على الرغم من انشغال مستشفى الإرسالية، ونقص عدد الأطباء والممرضين فيها. وهكذا تم كل شيء بسرعة، واستطعت اصطحاب احد المساعدين معي في الرحلة.

وفي اليوم الثالث بعد وصول الدعوة، أبحرنا صباحاً فوصلنا إلى الأحساء في اليوم التالي، حيث كانت محطتنا الأولى في الطريق التي توقفنا فيها خمسة أيام.

وكان بقاؤنا في الأحساء ضرورياً للاستعداد لرحلة الرياض الطويلة، والاتفاق مع إحدى القوافل الذاهبة إلى هناك.

وعلى الرغم من طول فترة بقائناً المؤقتة في الأحساء، إلا اننا قضينا فيها أوقاتاً سارة. فالأحساء واحة جميلة، تنشر فيها المياه الحلوة في كل مكان، حتى إنها لتفيض عن حاجات الاستهلاك وري البساتين.

وبسبب هذه المياه الحلوة، نجد أن القمح وحتى الأرز، يزرعان هنا في مناطق ليست قليلة. أما بساتين النخيل، فهي ممتدة لأميال في جميع الاتجاهات. وإلى جانب النخيل، تتوافر في اماكن كثيرة اشجار التين والرمان والمشمش والخوخ وغيرها من الفواكه. وتباع جميع هذه الفواكه والخضراوات بأسعار زهيدة. ولأن الاحساء هي مركز تجارة الرطب في الجزيرة العربية، فإن آلاف البدو يأتونها في موسم الجني.

وعاصمة الأحساء هي مدينة «الهفوف»، وإلى جانبها تقع مدن عدة، يسكنها ما بين ٣٠و ٤٠ ألف نسمة. وهناك حوالى سبعين قرية أيضاً تقع وسط بساتين الاحساء. وبعض هذه القرى تعد مسكناً لبضعة آلاف من سكان الاحساء.

وعلى الرغم من أن الجو في الأحساء جميل، ويتزامن مع ليال باردة جافة حتى في الصيف الحار، إلا أن المنطقة فيها بعض الحالات المحدودة من الملاريا، ولكنها تبدو أقل بكثير من الحالات الموجودة في البحرين.

وأكثر من ذلك، فقد وجدنا في أثناء جولاتنا في القطيف، أن الناس فيها ليسوا متعصبين.

وبعدما انتهت ترتيبات السفر، سافرنا بواسطة الجمال إلى الرياض. طبعاً، كانت الرحلة متعبة وطويلة، ولم الاحظ شيئاً طول الطريق سوى الجو الحار الذي جعل السفر شاقاً. لكن السفر في هذه البلاد، ليس صعباً دائماً. ففي الربيع، تكون الرحلات لطيفة عبر الأراضي المهجورة، الخالية من الحياة.

وفي اليوم الخامس من رحلتنا، وصلنا إلى الرياض. ومنذ اليوم الأول لإقامتنا، استطعنا افتتاح عيادة صغيرة لمعالجة الأهالي الذين راحوا يتوافدون علينا.

وعلى الرغم من انشغالي، طول الوقت، بالمعالجة والتطبيب، إلا أنني استطعت سرقة بعض الوقت للتجول في هذه المدينة، التي عشنا سنوات طويلة نحلم بمشاهدتها.

والرياض، كمدينة، هي في الواقع صغيرة، وربما كانت أصغر من مدينة «العمارة» العراقية. ولكن بساتين النخيل التي تحيط بها، تعطيها بعض الجمال.

وتروى مساحات البساتين التي يعمل فيها معظم سكان المدينة تقريبا، بواسطة آبار حفرت على عمق يصل إلى ٤٠قدماً.

وقرب الرياض، هناك مناطق عدة خصبة أيضاً، بل يوجد هناك بعض المدن القريبة منها، تجعل الرياض نفسها تبدو مركزاً للتجمع السكاني في المنطقة كلها. وهي، على العموم، مسألة سهلت كثيراً من مهامنا الطبية، كما جعلت من إقامة مستشفى فيها موضوعاً سهلاً.

وبسبب ذلك، تبدو الأهمية الكبرى لمدينة الرياض في كونها أصبحت المركز السياسي والديني في الجزيرة لعربية. فسلطة الحاكم الحالي، ابن سعود، تمتد إلى جميع أراضي وسط الجزيرة العربية. وهي سلطة تنمو باطراد أيضاً. والرياض كذلك صارت مركزاً للتعليم الإسلامي، الموجود في كل مدينة وقرية في نجد. وهكذا يأتي إلى المدينة، كل يوم، مئات البدو من كل مكان، حيث يسكنون في بيوت الضيافة الملكية التي تتسع لـ ١٥ ألف شخص تقريباً.

والرياض هي أيضاً مركز الحكومة السعودية الحالية، وفيها تدار جميع أعمال القبائل البدوية المتحالفة مع ابن سعود. كما يوجد فيها آلاف من البدو المنضيمن للقتال. وهناك رجال آخرون يرسلون في مهمات تعليمية إلى مناطق أخرى.

وفي الأيام الأولى من إقامتنا في الرياض، واجهتنا بعض الصعوبات في العمل الطبي. لكننا، مع الوقت والأيام، قمنا بواجبنا بأفضل مما هو ممكن القيام به في تلك الفترة. واجهتنا فقط حالتان صعبتان لإزالة الحصى، وحاولنا، طبعاً، بذل كل ما نستطيع، إلا أن المريضين توفيا رغم كل شيء.

وعلى الرغم من المطالبة الكبيرة للمرضى والأهالي لنا بالبقاء، إلا أننا توقفنا عن العمل بعد عشرين يوماً بسبب انتهاء مخزون الأدوينة الطبية، ولكننا مقابل ذلك طالبنا المرضى والأهالي المحتاجين إلى العلاج بالمجيء مستشفى البحرين للتداوي.

وبعد عشرين يوماً، غادرنا الرياض، بعد ما حصلنا على دعوات ودية للمجيء في السنة المقبلة، ولفترة أطول.

المبشرة سي. ستانلي ميلري في البصرة، العام ١٩١٨:

مزارع نخيل جميلة

ودور سينما تعرض أفلام الكاوبوي

لم تغب البصرة في جنوب العراق عن بال وأعين مبشري وأطباء الإرسالية الأميركية. فعلى الرغم من أن الإرسالية افتتحت لها مراكز ومستشفيات ومكتبات في بعض مدن الخليج العربي، إلا أن البصرة ظلت، ولسنوات طويلة، المركز الرئيس لعمل الإرسالية ونشاطها.

وبجانب ذلك، فقد كانت البصرة وبعض مدن جنوب العراق الاكثر جاذبية وإغراء بالنسبة إلى المبشرين. وهكذا كانوا يتنافسون في ما بينهم للبقاء والعمل فيها نظراً إلى تميزها بمظاهر التقدم الحضاري عن باقي مدن الخليج العربي.

وفي آب /أغسطس ١٩١٨، قامت المبشرة سي. ستانلي ميلري مع مجموعة من أصدقائها بزيارة إلى البصرة، وكتبت عن هذه الزيارة في مجلة الارسالية الأميركية قائلة:

لقد كان ذلك أشبه بحلم جميل. ولكن عندما استيقظت من النوم، وجدت أن كل ذلك حقيقة.

حصلنا مؤخراً على دعوة للمجيء الى البصرة في زيارة قصيرة. ولأننا كنا في تلك الفترة نعيش في أجواء الصيف الحار، فقد كنا تواقين إلى الهرب من هذا الجو الخانق، ولو لمدة أسبوعين.

بدأت رحلتنا من الكويت عند الفجر، على متن باخرة حكومية صغيرة، ووصلنا إلى منطقة «الفاو» عند الخامسة بعد الظهر. وتوقفنا فيها، لأنه كان علينا قضاء الليل كله، ولذلك فكرنا في المشي قرب الساحل لتمضية الوقت. وعلى الساحل، وجدنا مبنيين بارزين بوضوح، هما مبنى مكتب البريد ومبنى التلغراف. وكانت الحراسة الوحيدة على هذين المبنيين الأضواء الكهربائية الكاشفة، التي تضاء منذ غروب الشمس وحتى الفجر. وهذه المنطقة هي أول منطقة احتلها البريطانيون، وهم في طريقهم إلى البصرة، العام ١٩١٤، أثناء الحرب العالمية الأولى.

وفي صباح اليوم التالي، أستأنفنا الرحلة. وفي الطريق إلى البصرة، كانت بساتين النخيل على جانبي نهر الفرات، تبدي حسنها وخضرتها في أبهى صورة.

وفي الطريق، رأينا أيضاً عدداً من الزوارق البخاريجة والسفن الحربية، وبجانبها، كانت هناك مجموعة كبيرة من السفن الضخمة العابرة للمحيطات. وفي الواقع، إن شط العرب كان مملوءاً بالسفن عند اقترابنا من البصرة. وعلى أحد جوانب النهر، رأينا سفينتين كبيرتين، عرفنا، في ما بعد، أنهما استطاعتها الهروب من حرب الغواصات في البحر المتوسط، أثناء الحرب.

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، وصلنا إلى البصرة، وكان الجو حاراً، وقتئذ، وعند اقترابنا من الأرصفة؛شاهدنا أعداداً كبيرة من الجنود الذين يرتدون البدلات الكاكية الرسمية.

لدى وصولنا، عبرنا أحد الجسور إلى بيت الإرسالية. وفي أثناء سيرنا، لفت انتباهنا مبنى جذاب، لم يكن هذا المبنى سوى الكنيسة الجديدة.

وفي ما عدا بعض الأوقات التي قضيناها في الكنيسة، كانت أيامنا حافلة جداً في البصرة؛ فقد قضينا ساعات طويلة في التعرف بالمعدينة ومعالمها، وفي احد الأيام، ذهبنا في سيارة أحد الأصدقاء لرؤية معسكرات الجيش البريطاني في البصرة. وأثناء الجولة، صادفتنا طرق معبدة جميلة، ومررنا على بساتين النخيل الخضراء، عند «مرجيل» و«مكينة»، وتوقفنا عند نادي «مكينة» لتناول الشاي والاستماع إلى أنغام الفرق الموسيقية. وفي الحقيقة، إن المرء لا يستطيع ان يصدق بسهولة أن كل ما يشاهده موجود في البصرة.

وفي أحد الأيام، ذهبنا صباحاً لزيارة مكتب البريد. وكان شيئاً ممتعاً مراقبة عملية توزيع البريد على إدارات الجيش البريطاني، مثل:المدفعية، المهندسين، الخيالة، كتيبة المشاة وغيرها.

وبعد ذلك، قمنا بزيارة إلى مكتب الرقابة في المدينة، وكنا نتساءل، ونحن في طريقنا، عما إذا كانت الرسائل الواردة والصادرة تراقب من قبل هذا المكتب، أو ربما تصادر.

وفي مكتب الرقابة، وجدنا أن لكل لغة في الرسائل البريدية رقيباً خاصاً، وقد أخبرنا بان اللغة الوحيدة، التي لا يمكنهم قراءتها، هي «الويلزية» (نسبة إلى ويلز) ، ولذلك فإن جميع الرسائل المكتوبة بـ «الويلزية»، وهي عموماً رسائل كثيرة، كانت تذهب إلى لندن لمراقبتها.

وفي بعض الأيام، كنا نتمشى عند غروب الشمس، ونعرج على أحد المعسكرات البريطانية في المدينة زوكانت خيام هذا المعسكر موجودة داخل بساتين النخيل، وتبدو جميلة في شكلها ونظافتها. وكنا كثيراً ما نرى الجنود والضباط، وهم يجمعون الخيام ويفرشونها على الأرض، ثم يقومون بكنسها وتنظيفها.

والسينما، أيضاً كانت شيئاً مدهشاً لنا في البصرة. فعلى الرغم من أننا ذهبنا إليها مرتين فقط، إلا أنهما كانتا من الليالي التي لا تنسى. ودور السينما الثلاث في البصرة موجودة منذ فترة، بل منذ أيام الأتراك.

وفي إحدى الدور، وجدنا الصالة كبيرة جداً، مملوءة بالرواد إلى حد يصعب معه وجود مقعد فارغ. وكانت الصفوف الأمامية مملوءة بالعرب والهنود بجانبهم يجلس بعض الجنود الأمامية وخلف هذه الصفوف، كان يجلس الضباط وممرضات الصليب الأحمر. وفي إحدى الزوايا الخلفية للسينما، كان من الممكن أن تجد «الآيسكريم والليمونادا» يباعان للرواد.

وفي الليلتين اللتين زرنا فيهما السينما، شاهدنا فيلمين أميركيين، الأول من كاليفورنيا، والثاني عن حياة الكاوبوي. وقد شاهدنا العرب والهنود، وهم مسرورون جداً بمشاهدة الأفلام، ويضحكون من أعماق قلوبهم في جميع مشاهد الافلام المضحكة.

وفي عصر أحد الأيام، أعارنا أحد الأصدقاء سيارة، وفكرنا في استغلالها للذهاب إلى إحدى المناطق خارج البصرة، كانت قد شهدت معارك عنيفة أيام الحرب.

وعندما وصلنا إلى المنطقة، لم نجد أشياء كثيرة نشاهدها. وجدنا فقط قبوراً لقتلى المعارك. وعندما هممنا بمغادرة المنطقة، التي كانت تبعد عن البصرة ١٤ ميلاً، تعطلت السيارة، وحاول السائق إصلاحها، ولكن من دون فائدة. وبعد مرور بعض الوقت، غربت الشمس، وبدأت احتمالات العودة إلى البصرة تضعف تدريجياً. وبعد بحث وترقب طويلين، لمحنا من بعيد بعض الخيام. وفي الحال، ذهب أحدنا إلى هذه الخيام لمعرفة ما إذا كان فيها أي اتصال تلغرافي بالبصرة.

وفي الفترة نفسها، جاءت عربتان مقبلتان من البصرة، فأوقفناها وسألنا السائقين عن إمكانية العودة مرة أخرى إلى البصرة. وفي الحال، جاءنا صوت واحد حازم :لا. إننا نحمل جنائز موتى، ويجب إيصالها إلى المقبرة، كما أنه لا توجد لدينا أضواء. في الحال، أدركنا أن الصناديق الطويلة في مؤخرة السيارتين فيها جثث، أحضرت من الزبير لتدفن في مقابر قريبة من ذويها. وعندما فكرنا في الطاعون المنتشر في البصرة، وجدنا أن الرفض كان أفضل لنا.

وبعد مضي بعض الوقت، رجع الشخص الذي أرسلناه لاستطلاع الخيام قائلاً إنه استطاع الإبراق للبصرة وشرح وضعنا. وأخبرنا بأن هذه الخيام تخص العاملين في محطة قطار الزبير.

وفي الواقع، إن انتظارنا لم يطل، فقد وصلتنا سيارة خاصة من البصرة، رجعنا فيها. وفي الساعة التاسعة والنصف، جلسنا لنتناول طعام العشاء في بيت الإرسالية، سعداء بعودتنا سالمين.

ومضت الأيام بسرعة ،وجاء موعد الرحيل بأسرع مما كنا نظن. وفي الواقع، فقد اكتشفنا أن هناك الكثير من الاشياء والأماكن، التي لم نشاهدها بعد في البصرة، ولكن الوقت الجميل، الذي قضيناه هنا، لم يشعرنا بالأسى على ذلك.

غادرنا البصرة، وكانت الأفكار التي تدور في ذهني تتركز على قضية واحدة، لازمتني طول الفترة، وهي :معنى احتلال بلد بالقوة.

الحرب العالمية الأولى في البحرين

كساد وأخبار وكتب مزعجة

فجأة، ومن دون سابق إنذار، وجد المبشر الأميركي جيمس مويرديك نفسه محاصراً في البحرين، بعدما انطلقت أولى قذائف مدافع الحرب العالمية الأولى في سهول أوروبا.

كان مويرديك، يومذاك، مبشراً متجولاً، يركب الخيول والحمير، ويسافر على متون القوارب والبواخر إلى مدن خليجية مختلفة، حسب ما تقتضيه مصلحة الإرسالية الأميركية وبعثاتها في المنطقة.

طبعاً، لم يجد مويرديك خياراً آخر غير البقاء في البحرين ومراقبة مدافع الحرب من بعيد، والأهم مشاهدة دخانها وهو يصل إلى هذه الجزر الصغيرة البعيدة عن أوروبا.

وأكثر من هذه المشاهدة، استغل المبشر فرصة الحصار، وراح يدوّن ما يستطيع من ملاحظات وحوادث وأخبار.

كتب يقول في تقرير خاص:

عندما بدأت أخبار الحرب في أوروبا تصل إلى البحرين، راح الناس، أول الأمر، يتعاملون معها بفضول ثم بشوق في ما بعد. وكان الجميع يريدون معرفة ما يحدث هناك، وما هي الفرق المتحاربة. . .

وأصبحت الصحف فجأة، مطلوبة بقوة. ففي غرفة المطالعة في مكتبة الإرسالية في المنامة، جاء رواد جدد كثيرون، وراحوا يقرأون بتمعن جميع الصحف والمجلات المتوافرة.

وعلاوة على هؤلاء، حضر أناس كثيرون لشراء كتب جغرافيا وأطالس من جيمع الأنواع، حتى نفد المخزون لدينا في مكتبة الإرسالية.

وفي كثير من الأحيان، كان يأتي بعض الرجال، الذين لا يستطيعون القراءة، مرافقين أصدقاءهم الذين يعرفون القراءة، لكي يخبرونهم بما يحدث، ولكي يقوم هؤلاء بإخبار هذه المعلومات للناس. وكانوا يضيفون عليها، طبعاً، ملاحظاتهم وتعليقاتهم.

وقبل أيام قليلة من دخول تركيا الحرب، قامت بريطانيا بحمل قوات حربية من الهند إلى هنا. كما وصلت سفن حربية قليلة إلى الميناء، وقد خلق ذلك توتراً، تلته أحاديث كثيرة بين الناس عن الحرب.

ولم تنزل هذه القوات مطلقاً في البحرين. فبعد أيام أرسلت إلى الفاو والبصرة في العراق. ولذلك، فإن الشعور بالخوف من وجود الجنود، الذي أثار الأهالي، سرعان ما اختفى برحيلهم.

ومع بداية الحرب، اعتقل الإنكليز في البحرين تاجراً ألمانياً، وتم ترحيله إلى الهند بتهمة نشر أخبار كاذبة وسط العرب، إضافة إلى محاولات أخرى قام بها، مثل دفع بعض الأموال لحض العرب على معارضة السيطرة البريطانية.

وفي البحرين، يوجد عدد كبير من العرب المؤيدين لألمانيا، خصوصاً عندما اشتركت تركيا في الحرب.

وعلى الرغم من أن سوق البحرين يكون، في العادة، مملوءاً بالحركة والنشاط، إلا أنه ليس بالسوق الكبير، لكنه يمتاز عن غيره من الأسواق، بكونه مركزاً للتوزيع على الموانئ الأخرى في منطقة الخليج.

وعندما كانت الأوضاع هادئة، كانت البضائع تحضر إلى البحرين من كل مكان. ولكن منذ بداية الحرب، هبطت حركة الاستيراد والتصدير إلى أكثر من خمسين في المئة. إلى جانب ذلك، تناقصت أعمال تجارية كثيرة في المنامة، وبسرعة غير متوقعة، وارتفعت أسعار مواد البناء، وانخفضت رواتب العمال من ٣٣ سنتاً إلى ٢٠ سنتاً لليوم الواحد.

وعند اندلاع الحرب، كان غواصو البحرين في البحر، وكان الطواشون قد بدأوا لتوهم بشراء اللؤلؤ. ومن دون سابق إنذار انهارت اقتصادات سوق اللؤلؤ. وتلاشى أي أمل في انتعاش السوق مرة أخرى. ومن المتوقع أن يعاني الغواصون كثيراً من هذه الأوضاع.

وانعكست هذه الحالة الاقتصادية على الوضع التمويني، وشح الغذاء. فقد عوقب رجل بشدة سرق كيس أرز من أحد التجار، وكان الرجل يريد أن يطعم عائلته الجائعة. إزاء هذه الأوضاع، غادر البحرين الكثير من الفرس والأكراد إلى مناطق أخرى.

وأثرت هذه الأوضاع في عمل الإرسالية الأميركية في البحرين. فعندما يذهب مبشر إلى السوق، أو في جولة في القرى للتبشير، يبدي الناس تجاهلاً، لكنهم يلحون عليه في التساؤل :متى ستوقف الدول العظمى هذه الحرب ؟ وقد اشتكى أعضاء الإرسالية ايضاً من كساد بيع الأناجيل والكتب المسيحية الأخرى، حتى لو كانت اسعارها زهيدة جداً. والسبب، كما يقولون، أنهم يحتاجون إلى النقود لشراء الطعام. وحتى قراءة الكتب الدينية، أصبحت مرفوضة تماماً، ولسان حال البحرينيين يقول لنا: لا يوجد لدينا وقت لإزعاج أنفسنا بهذه الكتب.

وإلى جانب الكتب المزعجة، لم يزعج المبشر الأميركي جيمس مويرديك نفسه بكتابة تقرير أخر عن الحرب العالمية الأولى في البحرين.

مبشرة زارت مدينة الزبير العراقية، العام ١٩١٠:

عندما حدثوني عن نيويورك

لوقت طويل، كانت مدينة البصرة العراقية في الجنوب، هي المركز الرئيس والمهم لعمل الإرسالية الأميركية الطبي والتبشيري في العراق.

وبسبب ضخامة الأعمال في مدينة كبيرة نسبياً من حيث المساحة والسكان، مثل البصرة في بداية هذا القرن، فقد تأخر المبشرون والأطباء الأميركيون عن القيام برحلات وزيارات إلى المدن والقرى المجاورة.

ولكن، بعد سنوات طويلة من هذا الانشغال في البصرة، بدأت أولى الرحلات إلى مدن وقرى جنوب العراق. ففي صيف العام ١٩١٠، قامت المبشرة مارثا فوجيل بزيارة إلى مدينة الزبير المشهورة، وكتبت عنها قائلة :

إن الطريق إلى المدينة الصحراوية المشهورة الزبير، التي تقع على بعد ١٢ميلاُ جنوب غرب البصرة، يمر عبر أرض صحراوية قاحلة. وباستثناء أجزاء قديمة متهدمة من مسجد تاريخي، له منارة مهددة بالسقوط في أي لحظة، ومقهى صغير في مواجهته، فلا توجد علامات طريق أخرى غيرها في هذه الرحلة.

ويمكن الوصول إلى الزبير في خلال ساعتين، إذا كانت الطرق في حالة جيدة. ولكن في بعض الأحيان، يستغرق الطريق إلى المدينة أكثر من خمس ساعات. ويعتمد كل ذلك، طبعاً، على أسباب ووسائل السفر.

وأول ما تمكن ملاحظته، عند دخولنا المدينة، وجود منارة ضخمة للمسجد الرئيس في المدينة. وبيوت الزبير ومبانيها الموجودة في جميع شوارعها الضيقة متواضعة وبسيطة الشكل والبناء. وهو الانطباع نفسه الملاحظ على سكان المدينة، المشهورين باستقامة الرأي والتواضع، والذين ينظر إليهم الكثير من المسلمين في كل مكان، على أنهم ـ أي أهل الزبير ـ متدينون وأتقياء.

ويسكن الزبير حوالى عشرة آلاف نسمة، يعيشون في بيوت ضيقة تشبه السجون. وعندما ينظر المرء إلى سقوف تلك البيوت الهشة، يكتشف أنها مبنية من الطين، ومن دون أي أساس.

وفي خلال فصل الشتاء وموسم سقوط الأمطار، يسقط ما لا يقل عن ستين بيتاً في المدينة. وعندما سألت عن وقوع ضحايا أثناء سقوط هذه البيوت، أكد لي أحدهم أنه لم يكن هناك ضحايا.

والزبيريون معظمهم من منطقة نجد، المشهورة في وسط الجزيرة العربية، وإليها ينتمي كل أجدادهم وعائلاتهم، بل إنهم يتحدثون بفخر واعتزاز عظيمين عن نجد وانتمائهم إليها.

ومعظم أهالي الزبير أشخاص حذرون، ولا يقيمون علاقات بالغرباء بسهولة. كما أن المرأة الزبيرية تعاني عزلة شديدة.

والكثير من رجال الزبيرهم تجار وملاكو عقارات، ورجال دين، وتجدهم دائماً في وقار واحترام، يلبسون ثياباً نظيفة، ويتميزون بلبسهم لأغطية الرأس الأنيقة والجميلة. وبسبب

ذلك، فإن الزائر يستشف أن هؤلاء الناس قد سافروا إلى العالم الخارجي، وأن لديهم علاقات بالعالم المتحضر.

فالحرير الذي يستخدمونه في لباسهم، يلاحظ أنه اختير بعناية، وجلب خصيصا من الهند، حتى عاداتهم وأسلوبهم في الحياة يظهران أنهم خاضوا تجارب عديدة ويعرفون الكثير من ثقافات البشر.

ولذلك، فإنني لم أستغرب مطلقاً، حين جاء إلى بيتي في المدينة رجل عربي من أهل الزبير، وقال إنه يرغب في التحدث معي عن مدينة نيويورك الأميركية. فبعدما سألته عن معلوماته عن هذه المدينة، راح يتحدث إلى بإنكليزية ممتازة عن زيارته إلى اميركا في العام الماضي.

وفي مرة أخرى، زارتني امراة، لا يظهر منها أي شيء بسبب الحجاب، وراحت تتحدث بإنكليزية معقولة عن عزلتها هنا، على الرغم من أنها امرأة شابة، وعن عدم استطاعتها الخروج من المنزل، ورفض زوجها إعطائها إذناً لزيارة الطبيب في البصرة، وكانت هذه المرأة تشرح لي معاناتها، وهي خائفة من أن أفشي سر وجودها وزيارتها لي. وكان المؤلم بالنسبة إليها، انها تتمتع في بعض الأشهر بحرية مطلقة، عندما تسافر مع زوجها، تاجر اللؤلؤ، الذي يذهب إلى الهند للتجارة في كل عام.

وبجانب هذه المرأة، شاهدت وعرفت الكثير من النساء في الزبير أثناء زياراتهن المتكررة للعلاج، عندما افتتحت عيادة صغيرة في المدينة، لبعض الوقت.

كان افتتاح العيادة أمراً صعباً، لولا أنني زرت الزبير قبل عام، وبقيت فيها أسابيع عدة، تمكنت خلالها من معالجة عشرات المرضى في بيت شيخ المدينة.

وهكذا، فقد استطعت هذه المرة البقاء في الزبير ثلاثة أشهر، من دون أن الاحظ معارضة تذكر. وفي هذه الفترة، استطعت القيام بعمل طبي ممتاز، وعالجت الكثير من المرضى. كما تمكنت من قراءة الإنجيل عليهم في بعض الأوقات.

والواضح أن مدينة الزبير سيكون لها مستقبل جيد. فقد اختيرت لتكون إحدى محطات السكة الحديد، التي ستربط البصرة بالكويت، وستزداد أهميتها بسبب طريق القوافل المعروف من مدينة الناصرية والكثير من الرحلات التي تنتهي فيها.

الطبيب شارون توماس يكتب عن عيادة مطرح، العام ١٩٠٩:

الأخبار تجلب المرضى. . . والنظافة تلفت النظر

في الاجتماع السنوي للإرسالية الأميركية، الذي عقد في البحرين في كانون الثاني / يناير ١٩٠٩، قرر أعضاء الإرسالية فتح مناطق عمل جديدة، بخاصة في البلدان التي أصبح

لديهم مراكز في عواصمها، مثل العراق وعمان. وتم في هذا الاجتماع تكليف الطبيب شارون توماس فتح عيادة طبية في مدينة مطرح العمانية.

وكتب شارون توماس عن تلك التجربة قائلاً:

بعد الاجتماع السنوي للإرسالية الأميركية في المنامة، وقرار فتح عيادة طبية في مدينة مطرح في عمان، أصبح بيتنا في البحرين في فوضى كاملة. فقد عملنا لأيام عدة متواصلة، ليل نهار، لتجهيز أنفسنا للسفر إلى مسقط ثم إلى مطرح. وبسرعة، وضعت جميع الكتب والصور والخزائن والأثاث وألعاب الأطفال وغيرها، في صناديق وأكياس.

ولم يطل انتظارنا كثيراً. فقد تم كل شيء بسرعة. وعلى الرغم من أن الرحلة إلى مسقط كانت رحلة عاصفة، إلا أنها كانت تهدأ بعض الأحيان.

وفي يوم وصولنا إلى مسقط، كانت الريح هائجة على غير عادتها هناك. وأدى ذلك إلى بروز صعوبات عدة أثناء وصولنا إلى شاطئ مسقط بالقوارب الصغيرة. وأكثر من ذلك، تضرر أثاثنا تضرراً كبيراً، على الرغم من عمليات الربط والتغليف التي قمنا بها في البحرين.

وطبعاً، كانت الرحلة البحرية العاصفة والوصول المزعج والمرهق، يبشران وينذران بما ينتظرنا على الشاطئ. فمنذ اليوم الأول، أظهر سلطان مسقط عدم تحبيذه لدخول إرساليتنا الطبية إلى عمان. وتم استدعاؤنا، وأخبرنا بأن في عمان أطباء بما فيه الكفاية، ولذلك يجب علي المغادرة بسرعة، وعدم مزاولة أي عمل طبي.

وكان ردنا على ذلك، أنه لايوجد سوى طبيب واحد في مسقط، أما مطرح فلا يوجد فيها أحد على الإطلاق، باستثناء «الحكماء» المحليين، الذين يمارسون التطبيب، على الرغم من انهم لايستطيعون انتزاع شظية من جسم أي شخص، من دون أن يتسمم دمه، وهذا يعني الحاجة إلى أعمال كثيرة تستدعي ستة أطباء على الأقل، يعملون في منطقة واحدة. وبجانب ذلك، فإن الاتفاقية بين الإرسالية وعمان، تعطينا الحق في العمل، خاصة عندما يكون هناك أطباء من جنسيات أخرى.

وطبعاً، لم تنته المشكلة بسهولة. فالمعارضة استمرت، وتحولت القضية إلى واشنطن من طريق القنصلية الأميركية في مسقط. وبعد فترة، انتهى كل شيء بالموافقة.

وبعد صعوبات جديدة، حصلنا على بيت في مطرح ولكن بما أن هذا البيت يحتاج إلى بعض الإصلاحات والتغييرات، ليكون صالحاً للعمل والإقامة، إضافة إلى انتظارنا لشحنة صغيرة من الأدوية، التي طلبناها من الهند، فإننا اضطررنا إلى البقاء في مسقط لبضعة أسابيع.

وفي تلك الأيام، رحنا نعالج المرضى في مسقط في الوقت نفسه الذي ننتقل فيه إلى بيت مطرح بالتدريج. وعلى الرغم من أنني كنت أقوم بمهمة معالجة المرضى بمفردي،

باستثناء بعض المساعدات من زوجتي، إلا أنني استطعت علاج ٧٩ مريضاً، علاوة على قيامي ببعض العمليات الطبية.

وفي صباح يوم ٨ نيسان/أبريل، انتقلنا نهائياً إلى مطرح. وفي اليوم الأول، جاء إلى العيادة مرضى قليلون، لكنهم ازدادوا في اليوم التالي، بعد الأخبار التي انتشرت، في مطرح والقرى والمدن القريبة منها، عن وجودنا لمعالجة المرضى. وبسبب هذه الأخبار التي جلبت الكثير من المرضى، استطعنا علاج ٩٠٠ مريض في الأسبوع الثاني.

وقد كان انطباعي عن اهالي مطرح ممتازاً جداً، إذ وجدتهم أناساً طيبين وكرماء أكثر مما توقعت، علاوة على أنهم يتميزون بالنظافة الشديدة اللافتة للنظر، وكثيراً ما ظهرت لنا أكواخهم المتواضعة نظيفة ومرتبة أكثر من أي منطقة أو مدينة في الخليج.

ومعظم نساء مطرح لا يرتدين الحجاب الكامل، الذي نشاهده في الكثير من مدن وقرى الخليج والجزيرة العربية. وبعض نسوة مطرح يرتدين نوعاً من الحجاب يشبه القناع، لكنهن يأبين خلعه عند المعالجة. وفي أحيان كثيرة، عندما نذهب لزيارة البيوت، نجد النساء يأتين إلينا، ويتحدثن معنا بكل لطف وأدب، بدلاً من الجلوس بقرب زوايا البيت، ورؤوسهن مغطاة، كما تفعل النساء في كثير من مدن الخليج.

ولكل ذلك، وجدنا أنفسنا متحمسين ومتفائلين بمستقبل العمل الطبي في مطرح. وسيأتي يوم، تكون فيه مطرح مركزاً طبياً كبيراً، يأتي إليه جميع المرضى من عمان كلها.

المبشر جيمس كانتين يكتب عن البصرة، العام ١٨٩٢:

معارضة تركية. . . وحراس يمنعون التبشير

مع بداية أول نشاط حقيقي للإرسالية الأميركية في منطقة الخليج والجزيرة العربية، الذي أقيم في مدينة البصرة العراقية، العام ١٨٩٠، لاقت الإرسالية صعوبات كبيرة ومتنوعة، بخاصة عندما واجهت الحكومة التركية، التي كانت تحكم العراق، أنذاك.

وفي نهاية كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٢، كتب المبشر المعروف جيمس كانتين عن وضع الإرسالية الأميركية في البصرة وبدايتها ومشكلاتها، في مجلة الإرسالية قائلاً:

لقد شعرنا، مع بداية عملنا في البصرة، وبخاصة مع العداء الذي تبديه الحكومة التركية لنا، بالخوف من أن يجابه عملنا بإعاقات حقيقية أو يمنع كلياً. ولكن، حتى الآن، ومع بداية هذه السنة، فإن الكثير من أبواب الفرص قد فتحت لنا، وجميع فروعنا تقوم بأعمالها. ولكن ليس هذا كل شيء.

ففي أشهر الصيف الماضية، عملنا بجهد كبير لمواجهة النقص الكبير في عدد العاملين في الإرسالية، وقد فرحنا كثيراً حين انضم إلينا بعض الزملاء من أميركا، في إرسالية

جديدة، علاوة على تمكننا من تشغيل مواطنين مسيحيين من العراق، وهما ديفيد ونعوم، وعملهما معنا كبائعي كتب للإرسالية.

وعلى الرغم من أنه معروف جيداً، أن الحكومة التركية لم تكن، في يوم ما، صديقة للإرساليات البروتستانتية، إلا أن سماح أو منع العمل الإرسالي، يعتمد إلى حد كبير على موقف الحكومة التركية، في هذا البلد أو تلك المدينة.

فالحاكم التركي الجديد، الذي جاء بعد فترة قصيرة من وفاة الحاكم السابق إلى البصرة، أظهر معاداة شديدة لعملنا الإرسالي.

فقد أدت زيادة بيع الأناجيل والكراريس المسيحية، في مكتبتنا في البصرة، إلى لفت الأنظار إلى عمل ونشاط الإرسالية. وبسبب ذلك، قام رقيب الكتب التركي الحكومي في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر الماضي، بزيارة إلى مكتبتنا. وصرح أثناء الزيارة بأن لديه تعليمات للبحث عن الكتب الهدامة والمخربة والمعادية للدين الإسلامي والمعادية للحكومة التركية، التي نقوم ببيعها، على حد زعمه.

ولم يجد الرقيب التركي، خلال زيارته، شيئاً يعترض عليه. فجميع الكتب المسيحية التي نبيعها مرخصة قانونياً، أما الكتب الأخرى، فعلى جميع أغلفتها أختام التصاريح الجمركية الحكومية من بيروت.

وفي مضايقة أخرى، جاءت ثلة من الجنود والضباط لتفتيش بيت الإرسالية، متذرعة بالحجة نفسها تقريباً. وفي هذه المرة، أوصلنا احتجاجنا على ذلك إلى القنصل الإنكليزي في البصرة.

وعلى الرغم من هذا الاحتجاج، إلا أن جنوداً حكوميين أتراكاً، راحوا يقفون أمام البيت، في شبه حراسة علينا، ومنعوا حمل وإدخال أي كتب، كما منعوا الزوار العرب من زيارتنا.

ولم يكن وجود الحرس هو المشكلة الوحيدة. فخلال تلك الفترة، أخبرتنا مجموعة من الشباب، المسلمين الذين يتلقون الدروس باللغة الإنكليزية عندنا، بأنهم منعوا من حضور هذه الدروس بالقوة. وتم منع المسلمين القلائل، الذين يأتون لزيارتنا على نحو منتظم.

وأكثر من ذلك، سمعنا أن عريضة انتشرت في البصرة كلها، ويقال إنها اشتملت على تواقيع من اليهود والرومان، تطالب بترحيلنا عن البصرة، لكن هذه العريضة لم تؤد إلى نتيجة.

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد استطعنا دحض كل تلك التهم دحضاً صريحاً. فعلاوة على احتجاج القنصل الإنكليزي، قمنا بإرسال برقية عاجلة، بناء على اقتراح القنصل إلى سفارتنا في القسطنطينية، وأسهم ذلك في أن نتمكن من حفظ كتبنا الشخصية وأوراقنا الخاصة، وألا تتعرض للمصادرة.

ومنذ مغادرة الحرس، لم يحدث لنا أي مشكلات، ولم تواجهنا إلا عقبات بسيطة، باستثناء احتجاز صندون من الأناجيل مرسل إلينا. والحجة التي قيلت لنا أنهم أرسلوا نسخاً من الكتب إلى القسطنطينية لقراءتها، ومن ثم الموافقة عليها.

وعلى الرغم من أن التبشير في شوارع البصرة، على النحو العلني السابق، سيكون، في الوقت الحاضر، عملاً تنقصه الحكمة، وضاراً بمستقبل عملنا، إلا أن ثمة فرصاً للتبشير بوساطة التحدث مع بعض الناس، إما في بيوتهم، أو في بيتنا، وهو ما نحاول القيام به في الفترة الحالية.

وفي خصوص مكتبة الإرسالية في البصرة، فقد استمرت مفتوحة يومياً، عدا أيام الأحد، خلال الشهور الثلاثة الماضية. وعلى الرغم من أن عدد الزوار المسلمين سجل تناقصاً، إلا أنه كان هناك، في الوقت نفسه، زيادة كبيرة في بيع الكتب المسيحية، كما سجلت الكتب الدينية والتعليمية زيادة ملحوظة أيضا. وكان أكثر أعداد الكتب المبيعة، هي الكتب باللغة العربية، إلى جانب الكتب الفارسية والتركية واليونانية والإنكليزية والفرنسية والألمانية والهندية والبرتغالية. وطبعاً، لا يعبر بيع هذه الكتب، وبهذا العدد الكبير من اللغات، إلا عن الخليط السكاني الهائل في البصرة، ميناء العراق الوحيد على الخليج.

المبشر بيتر زويمر في عمان، العام ١٨٩٦:

قوافل وضيافة. . . وبلاد جميلة

كانت مدينة مسقط العمانية، في العام ١٨٩٦، أرضاً مجهولة، بالنسبة إلى الإرسالية الاميركية، بل مكاناً من الصعب اختراقه.

لكن، وبتسهيلات بريطانية متعددة، استطاعت الإرسالية أن تقيم لها مركزاً متواضعاً في مسقط، يقوده المبشر والطبيب بيتر زويمر، وبمساعدة فاعلة من المبشر جيمس كانتين.

حول تلك الفترة المبكرة من بدايات عمل الإرسالة الأميركية في مسقط، كتب بيتر زويمر في مجلة الإرسالية، في كانون الثاني /يناير ١٨٩٧، يقول :

إننا سعداء لا ستطاعتنا كتابة تقرير عن التقدم، الذي تم تحقيقه، في محاولاتنا هنا في مسقط.

وفي الواقع، إن المكان الرئيس لبيع الكتب المسيحية وأعمال التبشير هو مكان بسيط، إنه دكان بيع الكتب في سوق مسقط.

وعلاوة على الدكان، فقد حصلنا، في الفترة السابقة، على بعض الفرص لمحادثة ومناقشة عمانيين من جميع الطبقات، حول الديانة المسيحية واهداف الإرسالية.

وبسبب تركيزنا على المكتبة، فقد جرى الاهتمام ببيع وانتشار الكتب المسيحية. وفي خصوص ذلك، تم إحضار بائع الكتب الحالي، جوزف ميشا، من العراق. والواقع، إن جوزف

تعلم في المدارس الكاثوليكية في الموصل، وبعد فترة، أصبح بروتستانتياً. وهو يحفظ الإنجيل والقرآن معاً، عن ظهر قلب. ومنذ مجيئه، للمرة الأولى، إلى مسقط، عانى جوزف الأضطهاد والتعصب، وحدث له الكثير من المشكلات. وفي أحد الأيام، تم تهديده بالضرب. وبعد أيام، تعرض فعلاً لذلك، ولم ينقذه سوى أحد المارة في سوق مسقط.

طبعاً، قدمت الإرسالية احتجاجاً قوياً، ووصل ذلك إلى سلطان مسقط، الذي اهتم بالموضوع، وتمت معاقبة الرجل الذي اعتدى على جوزف، وأخذ العقات المناسب. وعلى الرغم من ذلك، فإننا لا نجد، حتى الآن، أي تغير في المواقف تجاه عمل الإرسالية.

لهذا السبب، وجدنا فرصة عظيمة للقيام برحلات قصيرة إلى مدن وقرى عمان، في الأشهر الثلاثة الأخيرة.

ففي البداية، قام بائع الكتب جوزف بمرافقتي، سيراً على الأقدام، في رحلة إلى الجبل الأخضر، وبعد حوالى أسبوع، غادرت إلى مطرح، ومنها واصلت السير بوساطة الحمير، وهي وسيلة سفر ليست سريعة مثل الجمال، ولكنها اكثر راحة. ووصلنا إلى البركة، على ساحل الباطنة، وهي مقاطعة تحتوي على أراض خصبة ومزارع نخيل كثيرة.

وبين الباطنة والجبال الممتدة، صحراء واسعة، تبعد حوالى ٢٠ ميلاً، وتسكنها مجموعة من البدو المتجولين. وفي الشرق، تقع اكبر المدن المهمة، مثل الرستاق ونخل وسمائل ونزوة وتنوف، وجميعها مدن كبيرة وغنية بالمياه، التي تأتي من ينابيع الجبل الوافرة.

وبين هذه الواحات الخصبة، التي مررنا بها في الوادي، فإن المسافر الواقف فوق الجبال، ربما لا يرى كائناً واحداً ولا بيوتاً، بل قوافل فقط. وهذه القوافل لا شيء يميزها سوى البنادق المحمولة على اكتاف القادة، والأغاني الحماسية التي تصاحب خطوات الجمال.

وفي الجبل الأخضر، بدأنا رحلة الصعود. وبعد فترة طويلة من تسلق محفوف بالخطر، استطعنا الوصول إلى القمة على ارتفاع ٧٥٠٠قدم. ومن هذا المكان الشاهق، تمكنا من مشاهدة مناظر طبيعية جميلة.

ولم نبق على القمة سوى فترة قصيرة، لكننا رحنانهبط مع الحمير ببطء، على الرغم من خطر قفز الحمير فوق بعضها بعضاً، أثناء النزول. وعند الفجر، وصلنا إلى إحدى القرى الجميلة على الجبل، وهي تشبه وادياً صغيراً، عمقه ١٠٠قدم، مثل المدرج، يزرع فيها التفاح والخوخ والرمان والعنب وغيرها.

وقد بقينا في هذه القرية يومين، حيث وجدنا أهلها طيبين ويحبون الغرباء. ثم غادرناها إلى قرية اخرى، هي «سبلا»، وهناك جاءنا مئات العرب لزيارتنا والتقائنا. وإمعانا في تكريمنا، قاموا بتسليتنا بالقاء الأشعار العربية.

وفي «سيخ»، وهي اكبر مدينة في الجبل تقريبا، قمت ببيع خمسين نسخة من الإنجيل، ووعدت أهلها بقبول دعوتهم العاجلة للعودة.

وفي النهاية، قررنا العودة إلى مسقط من طريق الوادي، مروراً بسمائل. ولكن طريق لم تكن آمنة، لذلك، قررنا السفر من طريق الجبال مرة أخرى، والاستمتاع ببرودة الجو والضيافة التي يقدمها لنا الناس في كل مكان.

اخيراً، وصلنا إلى مسقط، بعد أربعة أيام من السفر، وبعد غياب طويل استمر ٢١ يوماً.

المبشر زويمر يزور، العام ١٩٠٠، جزيرة «أبو موسى»،

التي يحكمها الشيخ العربي، سالم:

في الشارقة، لا أحد يدخن السجائر

لم تغب الإمارات، بمدنها وسواحلها وناسها، عن بال المبشر الاميركي المشهور، صموئيل زويمر، لسنوات طويلة.

فمنذ العام ١٨٩٢، بذل زويمر محاولات عدة لزيارة الإمارات، ولكن من دون فائدة. لكنه استطاع، في العام ١٩٠٠، السفر إلى الإمارات، للمرة الأولى. وفي الأسبوع الأول من شهر أيار / مايو، بدأت رحلته الطويلة، التي كتب عنها في مجلة الإرسالة الاميركية يقول:

لقد مضت مدة طويلة على رغبتي في زيارة ساحل الإمارات. ولكن منذ أن أصبحت الوسيلة أو المكان الوحيد للوصول إلى الساحل هو من طريق البحرين فقط، وعلى متن القوراب المحلية، فقد أمست الفرص غير منتظمة في كثير من الأحيان، بل عادة ما تكون مسألة مشكوكاً فيها. وحدث مرتين أن حاولت السفر إلى الإمارات، ولكنني رجعت، في المرتين، بسبب الرياح المعاكسة والمناخ السيء.

وفي ٩أيار /مايو من العام ١٩٠٠، تحققت الرغبة، وقمت ومعي بائع كتب الإرسالية «الياس»، برحلة جديدة. ومنذ الصباح الباكر، وضعنا صناديق الكتب المسيحية، والعديد من الحقائب الطبية، فوق سطح المركب الصغير في ميناء المنامة. وعند الساعة الرابعة، كانت الرياح مؤاتية لمغادرة المركب الميناء.

ومع بدء الرحلة، تعرفنا إلى قبطان وملاحي السفينة العرب. وبعد مضي بعض الوقت، راحت السفينة تبحر في اتجاه شرق الخليج، لتجنب المياه الضحلة والصخور الموجودة على السواحل العربية. وفي ١١أيار /مايو، وصلنا إلى أحد الموانئ الصغيرة على «الساحل الفارسي»، تحاشياً من العاصفة الشمالية القوية، التي هبت علينا فجأة.

وفي هذا الميناء، نزلنا إلى الشاطئ، ووجدنا فرصة للتحدث مع الناس، الذين وجدناهم يتحدثون ويفهمون اللغة العربية من دون أي صعوبة.

وبعد ساعات قليلة، أبحرت سفينتنا في الخليج، متجهة مباشرة إلى الشارقة. وفي منتصف الطريق إليها، مررنا على جزيرة صغيرة، اسمها «أبو موسى»، كان يسكنها عدد لا بأس به من العرب، ويحكمها شيخ عربي، اسمه الشيخ سالم.

وعلى الرغم من أن جزيرة «أبو موسى» صخرية، إلا أننا وجدناها جزيرة مملوءة بمراغ هائلة ومياه عذبة. ويوجد فيها ميناء صغير، في الجانب الشرقي، مع مرسى جيد قريب جداً من الساحل. والتجارة الوحيدة للجزيرة هي تصدير «الأكسيد الأحمر». وفي بعض الأحيان، يأتي عدد من السفن من الإمارات لنقل الحصى التي يستخدمونها في رصف الطرق.

وفي صباح الإثنين ١٤ أيار/مايو، وصلنا إلى الشارقة، التي تعتبر المدينة الرئيسة في ساحل الإمارات.

ومنذ الساعات الأولى لوصولنا، لقينا ترحيباً وضيافة في بيت الوكيل البريطاني في الشارقة، عبد اللطيف السركال. وفي الأيام السبعة الأولى من إقامتنا، كان محل إقامتنا في كوخ العشيش الصغير، وهو أيضاً محل استقبالنا للناس ومكان علاجنا لهم.

ومع الايام الأولى، جاءنا أهل الشارقة العرب، وبكل حرية، للعلاج وأخذ الأدوية الطبية، ولرؤية الكتب المسيحية المعروضة، وفي بعض الاحيان، لمناقشة سبب مهمتنا ورسالتنا.

وفي الواقع، فقد قضينا تلك الايام، المملوءة بالعمل الذي لا ينتهي، في الأحاديث ومناقشة جميع أنواع البشر. وطول الوقت، كنا نقرأ من الإنجيل، ونجيب عن اعتراضات المارة والفضوليين. وفي كثير من الأيام، لم نكن نجد وقتاً للراحة، إلا بعد غروب الشمس ورحيل الناس. لكن بعد فترة قصيرة من تأدية المسلمين لصلواتهم في الليل، يعودون إلينا وتعود المناقشات الدينية.

وفي الشارقة، لاحظت أن السكان لا يدخنون، لا بل يبغضون تدخين السجائر.

وفي أحد الأيام، قابلنا شيخ مدينة البريمي، وهي مدينة كبيرة، تبلغ المسافة بينها وبين الشارقة أميالاً كثيرة، والرحلة إليها تحتاج إلى أربعة أيام.

وعند لقائنا بشيخ البريمي، دار الحديث في معظمه حول الديانة المسيحية. ومن خلاله، عرفنا أن الشيخ رجل عربي مثقف وذكي. وقد أظهر رغبته في التعرف إلى الصلاة المسيحية. وقرأت عليه المزمور الحادي والخمسين والمرموز الستين أيضاً (المرموز أحد الأناشيد والترانيم والصلوات المئة والخمسين، التي يتألف منها سفر المزامير في الإنجيل). وقد أعجب الشيخ بذلك. وفي نهاية المقابلة، أخذ الشيخ معه إنجيلاً عربياً كبيراً، ودعانا إلى زيارة مدينته.

وبينما كنت مشغولاً، في الأيام الأخيرة من رحلتنا، بمعالجة المرضى الذين كانوا يتوافدون علينا باستمرار، كان بائع الكتب «الياس» يطوف في المدن القريبة، مبشراً ومحاولاً كسب تأييد الناس.

وقبل ثلاثة ايام تقريباً من رحيلنا، سافرنا بوساطة الحمير إلى مدينة دبي، التي تبعد عن الشارقة ١٢ ميلاً تقريباً، وقمنا ببيع جميع نسخ الإنجيل التي احضرناها معنا.

ولم نبق طويلاً في دبي، فقد غادرناها بعد الظهر. وكان علينا الاستعداد لمغادرة الشارقة ايضاً.

وفي ذلك اليوم، انتهت الأيام القصيرة من زيارة الشارقة وبعض مدن الإمارات، ولن أنسى معها طيبة الأهالي الكبيرة ودعواتهم المستمرة لبقائنا معهم.

وجهة نظر استكلندية في الاحتلال التركي لعدن، العام ١٩١٥:

الشيخ عثمان. . . أيام حرب عصيبة

في أثناء الحرب العالمية الأولى، كانت اليمن، بشمالها وجنوبها، إحدى ساحات الحرب الرئيسة. وفي بداية العام ١٩١٥، اشتد الصراع بين العثمانيين، الذين كانوا أحد أطراف الحرب الرئيسة، والموجودين في شمال اليمن، وبين الإنكليز الذين يحتلون عدن وجنوب اليمن.

ومع استداد الصراع، قامت القوات العثمانية، في تموز/يوليو من العام ١٩١٥، بمهاجمة مدينة لحج، في الجنوب، واحتلتها. وزحفت إلى منطقة «الشيخ عثمان» في عدن، واحتلتها أيضاً في ٦ تموز/يوليو. لكن النجدة البريطانية التي وصلت إلى عدن، أخرجت الأتراك من «الشيخ عثمان» في ٢٠ من الشهر نفسه.

عن تلك الفترة الصعبة، كتب المبشر د. ج. يونغ، عضو «أتحاد كنائس استكتلندا الحرة» الموجودة في عدن آنذاك، في مجلة الإرسالية الأميركية، يقول:

في يوم الأحد، السادس من تموز/يوليو، كان الدكتور ماك ري قد وعدني بالوعظ في كنيستنا في عدن، بمناسبة الذكرى الثالثة والعشرين لإقامة أول شعائر دينية مسيحية في عدن. لكنني فوجئت، عند الساعة الثالثة والنصف ظهراً، برسالة منه تخبرني بأن لدى الدكتور مرضى كثيرين من الرجال في البيت، يعانون الحمى الشديدة. ولذلك، فإنه يعتذر عن حضور الموعظة في الكنيسة.

وبعد انتهاء الموعظة في الكنيسة، قمت بقيادة سيارتي إلى منطقة الشيخ عثمان، بمرافقة الآنسة برايسن، التي جاءت معي، على الرغم من اخطار الدخول إلى المنطقة التي تسودها العمليات الحربية.

وعندما وصلنا إلى «الشيخ عثمان»، وجدنا الدكتور ماك ري يقوم بعمل شاق في مساعدة عشرات الجرحى. وقمت مع زميلتي بمساعدة الدكتور على إسعاف الجرحى بالإسعافات الأولية وتشجيع الجنود البريطانيين الجرحى.

بعد ذلك، توجهت مع الدكتور ماك إلى مستشفى عدن. وهناك قمنا بإخلاء الطابق الأرضي من المرضى تماماً، وكنا سنقوم بالعمل نفسه بالنسبة إلى الطابق العلوي، إذا وجدن أن ذلك ضروري. وبعد انتهائنا من كل هذه الاحتياطات وهذه الأعمال، توجهنا إلى البيت لتناول بعض الطعام، وأخذ قسط من الراحة.

وفي اليوم نفسه، وفي حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، تسلمت رسالة تدعوني إلى حضور جنازة أحد الضباط الإنكليز، في الساعة الثامنة من صباح الغد. ومع هدوء المعارك، سارت جميع الأمور بشكل جيد، ولم يغادر أحد المكان بسبب الخطر الذي لا يزال قائماً في المنطقة.

وعند ساعات الفجر الأولى، كانت هناك مهمات أخرى في انتظارنا. ففي الساعة الرابعة صباحاً، جهزت سيارة لوري صغيرة أمام المستشفى، ووضعت فيها جثة الضابط الإنكليزي مع أربعة جنود تعافوا جزئياً، ووضعت في اللوري أيضاً بعض الصناديق الطبية، التي جلبت من بيوت الممرضات وأماكن سكننا. وبجانب ذلك، كانت هناك بعض الأعمال الواجب القيام بها.

وفي الساعة السابعة مساء، تسلمت رسالة من مساعد مدير المستشفى للمؤن الطبية، يطلب فيها مني الحضور بأسرع وقت، والقيام أيضاً بمسؤولية المستشفى الأوروبي في عدن.

ازدادت المهام، وكثرت المشاغل. ولكن، في يوم الثلاثاء، بدأت القوات الإنكليزية باستعادة بعض الأماكن في المنطقة، والسيطرة الجزئية على منطقة الشيخ عثمان.

وفي أثناء ذلك، عادت القوات الإنكليزية إلى حماية أجهزة وأدوية المستشفى، التي تعرضت للنهب والسرقة في الفترة الماضية. كما عملت تلك القوات على إنقاذ معظم الاجهزة والأشياء التي تخص المستشفى. حتى تمكنت من إنقاذ الأثاث والصحون وغيرها وإرجاعها إلى أماكنها السابقة.

وخارج العلم الطبي، تبينت، من خلال جولاتي في شوارع الشيخ عثمان، واقع المأساة كما هي ؛فقد بدا منظر الدكاكين المنهوبة والبيوت المحترقة وآثار الدمار مؤثراً في النفس.

لكن أكثر ما أثار فرحي، هو تمكن القوات البريطانية من استعادة الكثير من كتبي، والكثير من التحف والكنوز التي احتفظ بها في عدن، وكنت قد جلبتها معي من الوطن، منذ الأيام الأولى لي في عدن.

وعلى الرغم من المعاناة الكبيرة، أثناء المعارك بين القوات الإنكليزية والقوات التركية واحتلالها للشيخ عثمان، إلا أن فكرة الرحيل عن عدن، لم ترد في ذهني على الإطلاق، مع أنها كانت ممكنة جداً.

وبعد أيام عدة، عاد كل شيء إلى طبيعته، وانتهى الاحتلال. وفي مساء يوم الأحد، حدث شيء مميز. فقد ذهب الدكتور ماك ري، على متن إحدى البواخر، لوداع خطيبته العاملة في عدن، التي طلبت منها الحكومة البريطانية مرافقة القوات البريطانية العاملة في شرق افريقيا.

وفي صباح اليوم التالي، كانت السفينة لا تزال راسية في الميناء. وجاءت الاخبار إلى عدن تقول إن طبيب السفينة مات، خلال اليل، وإن الدكتور ماك يريد أخذ مكانه والسفر، طبعاً، مع خطيبته.

وفي صباح يوم الأربعاء، انتشرت القوات البريطانية في جميع انحاء منطقة الشيخ عثمان. وفي العصر، ذهبت لرؤية الأضرار التي أصابت أملاك الإرسالية، وكنت مسروراً عندما وجدت الأضرار قليلة جداً.

لكن المبنى، الذي كنت أسكنه مع الدكتور ماك، والذي يقع في شارع رئيس، تعرض للهجوم والسرقة أيضاً.

ففي اليوم الثاني من احتلال الأتراك المنطقة، وصل بعض الجنود والضباط الأتراك إلى البيت، وأخذوا منه جميع السجاد الإيراني والجلود والتحف والمفكرات، التي جمعتها خلال السنوات الثلاث والعشرين في عدن.

وأثناء تفتيشهم للبيت، وجد الجنود الأتراك أن جميع الموجودات في بيتي، ثمينة أو غير ثمينة، هي أشياء يمكنهم أخذها. لكنهم عندما أجبروا على التراجع، قاموا، بسبب غضبهم وتهورهم، بتدمير بعض الأثاث، ومزقوا بعض كتبي، وكسروا المزهريات الكبيرة. وباختصار، لم يتركوا شيئاً يسلم من أذاهم، حتى آلة «الأرغن» المؤسيقية الجميلة، قاموا بتحطيمها بوساطة فأس، ومزقوا النوتات الموسيقية. وقبل خروجهم بقليل، عمدوا إلى اللوحات والصور فحطموا زجاجها واطرها.

وهكذا انتهت أيام عصيبة، لم تكن على البال، ولا في الحسبان.

المبشرة إميلي زويمر تكتب، العام ١٩٠٣، عن مستوصف البحرين:

الطاعون يجلب المرضى. . . والزوار النادرين

بدأ مستوصف النساء، التابع للإرسالية الأميركية في البحرين، عمله في مدينة المنامة بداية متواضعة. لكنه لم يخل من صعوبات ومقاطعة نتيجة أعمال التبشير الواضحة، التي تمارس في غرفة واجنحته.

ومع بداية عملها في النامة، كتبت السيدة إميلي زويمر بعض انطباعاتها عن بدايات مستوصف البحرين، في العام ١٩٠٣، قائلة:

مع بدء القيظ، هذا العام، وازدياد الحرارة ازدياداً ملحوظاً، وتحديداً في شهر أيار/مايو، انتشر في البحرين مرض الطاعون. ولكن، مع وجود الحجر الصحي، اصبح وصول الطاعون، بوساطة المسافرين أو البريد، مسألة شبه مستحيلة، خلال السنوات الست الماضية. وأكثر من ذلك، فإن جزر البحرين، استطاعت النجاة بأقل الخسائر من عدوى هذا المرض المخيف.

وعند انتشار المرض في مدينتي المنامة والمحرق، أصاب الناس رعب كبير. فجأة، ازداد عدد زوار المستوصف حتى أمتلأ. كما لم يكن هناك موطئ قدم في مستوصف النساء، الذي كان في السابق لا تزوره سوى المغامرات والزائرات النادرات، اللواتي كن يجازفن بالمجيء إليه.

وقد بدأت حكاية المرض بشائعات، انتشرت في البلاد، عن قيام أحد الاطباء بنشر مصل سام في المنامة. وراجت مع هذه الشائعات شائعات اخرى، تحدثت عن أنه قام بذلك لقتل جميع المسلمين، والإبقاء على المسيحيين فقط.

ومهما كانت درجة تصديق الناس لتلك الشائعات، إلا أن أكثر ما كان يخيف الناس، حينها، هو المرض نفسه. لذلك، تحدى الكثير من رجال ونساء الطبقات الفقيرة، المعارضين لوجودنا كإرسالية، وجاؤوا يبحثون عن مساعدتنا. وقد سررنا كثيراً لمساعدتهم على الضيق والبلاء الكبيرين، على الرغم من أنه كان من الصعوبة جداً ضمان شفائهم تماماً.

وفي الواقع، فإن أهم المشكلات التي واجهتنا، هي عدم وجود أي معسكرات لعزل المصابين. كما لم تكن هناك أي مساعدة حكومية. فكان يجب على كل مريض يصاب بالطاعون، أن يبقى في بيته، بينما نقوم نحن بالذهاب لمعالجة المصابين من بيت إلى بيت، في كل صباح، حاملين معنا الضمادات والمنبهات والأدوية المقوية. وفي كل يوم تقريباً، تضاف إلى قائمة المصابين بالطاعون حالات جديدة.

وفي الأيام الأولى، توفيت ثلاث نساء، كن تحت المعالجة، ولم نستطع عمل شيء بالنسبة إليهن. فقد أحضرن إلينا، وكن في حالات لا تخلو من الخطر، عندما أصبن بالطاعون.

وكثيراً ما واجهنا تلك المشكلة مع هذه الحالات الصعبة للنساء، اللواتي يصبح علاجهن صعباً أيضاً، ولا سيما النساء اللواتي يعشن في أكواخ صغيرة، خانقة وحارة جداً، ولا توجد فيها أي منافذ للتهوية، علاوة على قذارتها.

كما كانت مشكلة علاج الناس بالأدوية الشعبية، أو الأعمال التي يقوم بها مشعوذون، قضية أخرى، ساهمت، في كثير من الأحيان، في خلق الكثير من الصعوبات أمام العلاج.

فعندما نقوم بإعطاء المرضى بعض الحليب والحساء مثلاً، فإنهم يقومون، في الحال، بالسؤال عما إذا كان هذا لن يتسبب بزيادة مرضهم. وهذا السؤال يرجع، طبعاً، إلى بعض الاعتقادات السائدة عند الناس.

وعلى الرغم من هذه المشكلات، كنا، في الواقع، سعداء بمعالجة هذه الأعداد الكبيرة من الناس. وكان أكثر ما يفرحنا هو شفاء بعض المرضى وعودتهم إلى بيوتهم.

وبسبب رقاد بعض المرضى الطويل عندنا في المستوصف، وجدنا فرصة لقراءة بعض مقاطع الإنجيل والتحدث عن المسيحية مع المرضى. وكان ذلك، بالنسبة ليهم، شيئاً مثيراً للاهتمام. كما وجد كثير من المرضى، في اللوحات والصور المعلقة على جدران المستوصف، موضوعات تستحق الانتباه، وكثيراً ما كانوا يمعنون النظر فيها، ويسألون عنها بعض الأسئلة.

وبعد نهاية شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو، توقف انتشار مرض الطاعون، ونجت البحرين منه بأقل الضحايا، وعندها وجدنا فرصة لقليل من الراحة، توقفت مع وصول مرضى جدد.

ففي أحد الأيام، حضرت إلى المستشفى امرأتان كبيرتان في السن، من الأحساء، إحداهما جاءت للبحث في أمكان إعادة البصر لعينيها المصابتين بالعمى منذ ست سنوات تقريباً. ولم نستطع القيام بشيء من أجلها، لصعوبة الحالة، وكنا نسعفها ببعض الأدوية المخففة للآلام فقط. وكانت هذ المرأة جريئة جداً، وثرثارة جداً؛إذ طالما تبعتني في غرف المستوصف سائلة مئات الأسئلة:كيف آخذ أدويتي ؟متى ؟ وأين ؟ ومتى أعود مرة أخرى ؟ وعشرات الأسئلة التي لا تنتهي.

وبجانب المرأتين العجوزين، كان لدينا في المستوصف عشرة أطفال، يعانون التهابات في عيونهم، جاؤونا في صباح أحد الأيام في مجموعة واحدة، واشتكوا من مرض واحد. وفي الحال، أوقفناهم في طابور منتظم، ورحنا نغسل عيونهم ووجوههم. وقمنا، بعد ذلك، بصب قطرات من الغسول الطبي على عيونهم. ولأنهم جميعاً كانوا من الفقراء، فقد قمنا بتوزيع عملة نحاسية، تساوي نصف سنت، لكل واحد منهم، لجعلهم يشعرون بالسعادة، وهم ذاهبون إلى بيوتهم. والأهم هو تخفيف الألم عنهم.

وإلى جانب هذه الحالات، التي نعتبرها حالات بسيطة، نواجه، أحياناً، بأمراض نسائية غريبة، لم نر مثلها قط. ففي أحد الأيام، جاءت أمرأة شابة، تعاني آلاماً فظيعة. واكتشفنا، بعد الفحص، أن ظهرها وبطنها مملوءان بالجروح والتقيحات، وكان جسمها مشوهاً على نحو لا يصدق.

واحتاج علاج هذه المرأة إلى الكثير من الوقت والجهد. وساعدتني على علاجها الانسة دبيريه، التي تذهب إلى المرأة في كل صباح، وتضمد جروحها.

وفي صباح أحد الأيام، وبينما هي تستعد للذهاب إلى بيت المرأة، قمت بتجهيز الضمادات، ووضعتها على حمار الصبي، الذي يحضر إلى المستوصف، كل يوم، من قبل أهل المريضة. وكان من ضمن الأدوية التي وضعناها محلول «الفينول» (حمض الكربوليك). وعندما أعطيته للصبي، قلت له:خذ هذا. فأجاب، في الحال :لا. أنا لا أشرب الشاي.

طبعاً، استغرق الامر بعض الوقت لأشرح ما أقصده.

الطبيب ستانلي ميلري يتحدث، العام ١٩١٦، عن مستشفى الكويت

برغوث صغير سبب الشهرة

بعد أكثر من خمس سنوات من تأسيس العمل الطبي للإرسالية الأميركية في الكويت، بدأت، في تشرين الثاني /نوفمبر من العام ١٩١٥، معالجة الكويتيين في المستشفى الحديث الذي أنشاته الإرسالية.

وفي أول عدد من مجلة الإرسالية:«الجزيرة العربية المنسية»، وجد المسؤول الطبي عن مستشفى الكويت، الطبيب ستانلي ميلري، فرصة لتسجيل انطباعاته عن تلك البدايات، فكتب يقول:

لقد كان أول مريض كويتي، تم تسجيله في دفاتر المستشفى الجديد، شاباً في مقتبل العمر، وكان ذلك في ٩تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥بالضبط.

وكان الشيخ مبارك الصباح طيباً في معاملته الإرسالية، حيث قام بزيارة تفقدية للمستشفى في ٢٧كانون الثاني /يناير ١٩١٦. وقد عبر عن إعجابه بكل ما رآه في جميع الأقسام والغرف.

وفي مكتبي الخاص، سأل الشيخ عن ماهية «الميكروسكوب». وعندما وجدت صعوبة في شرحه نظرياً، قمت وأظهرت برغوثاً، ووضعته على الجهاز، وطلبت منه رؤيته بشكله المكبر جداً، الذي يقدمه الميكروسكوب. وفعلاً وجدت أن طريقتي نالت الإعجاب، وسهلت على الشيخ الفهم السريع. ولم ينس الشيخ هذا البرغوث. فبعد أيّام عدة، جاء الينا كثير من الناس يطلبون رؤية البرغوث، والتسلية برؤيته مكبراً جداً بالميكرسكوب، كما فعل الشيخ. وقد استمر ذلك لفترة ليست قصيرة. وبقي هذا البرغوث الصغير حديث الكويت مدة طويلة، وسبب شهرة للمستشفى أيضاً.

أضافة إلى زيارة الشيخ، قام نقيب مدينة البصرة العراقية، سيد رجب، في وقت مبكر من هذا العام، بزيارة للمستشفى. واستمرت زيارات النقيب، الذي كان يظهر تشجيعاً ومساندة دائمة لأعمالنا، كما يفعل في البصرة أيضاً.

وعلاوة على هذه الزيارات الرسمية، التي يقوم بها، أحياناً، أعضاء من الأسرة الحاكمة وبعض الضيوف، فإن العمل الطبي حقق تقدماً كبيراً في الكويت.

فلم يكن بين مرضانا، هذا العام، الفقراء فقط، ولكن من الطبقات الغنية أيضاً، التي بدأت تدخل أجنحة المستشفى. ومن بين هؤلاء ابن الشيخ مبارك الصباح، وبعض من عائلات الكويت الثرية.

وقد بلغ عدد المرضى، هذا العام، ١٧٧ مريضاً، مقابل ٩٥ مريضاً، العام الماضي. وأجرينا حوالي ٣٧ عملية، ورقد العشرات من المرضى في المستشفى للعلاج، حيث قضوا ٩٣٣ يوماً تقريباً. ولم نأخذ رسوماً نقدية إلا على حوالي ٩٠ مريضاً من الطبقات الموسرة، بلغت حوالي ١٦٢٥ روبية. أما البقية، فقد عولجوا مجاناً. وإننى أشير إلى هذه المسألة، لكي أفند انطباعاً، كان موجوداً، لبعض الوقت، عن أطباء الإرسالية، بأنهم لا يعالجون أحداً إلا مقابل أجور نقدية.

في الواقع، كان في أمكاننا معالجة عدد أكبر من هؤلاء المرضى، ولكن بسبب صعوبة البقاء في المستشفى، لمحدودية عدد الأسرة والأجهزة وبقية الإمكانات، أجبرنا على إرجاع الكثير من المرضى، وخاصة في فصل الصيف.

وإلى جانب العمل في المستشفى، فإننا نواجه صعوبات كثيرة، تتعلق بمسألة المواصلات وتنقلاتنا في مدينة الكويت، لمعالجة بعض الحالات الطارئة في البيوت. فالمسافات داخل الكويت، يمكن اعتبارها كبيرة جداً، ولا توجد هنا عربات أو سيارات، مثل البصرة.

ولأسباب أخرى، فإننا نضطر إلى قطع مسافات طويلة، تقدر، أحياناً، بالاميال مشياً على الأقدام. وعدا الوقت الذي يضيع علينا، فهناك مسألة الإجهاد الجسماني أيضاً الذي نعانية، ولا يمكن نسيانه، خاصة في فصل الصيف.

وإضافة إلى المعالجة وتوزيع الأدوية في المستشفى، فإن العمل التبشيري مستمر، كما هو عليه، بالمعدل نفسه الذي كان في العام الماضي. فبيع الكتب المسيحية، بمختلف أنواعها، يتم من طريق وضعها على طاولة صغيرة أمام صيدلية المستشفى، وذلك لافتقار المبنى إلى غرفة أنتظار وشرفة مناسبة، تصلحان لهذه المهمة، وقت الحاجة.

فالشرفة الموجودة في المبنى، حالياً، لا توفر العزلة المطلوبة، وليست المكان المريح، وخاصة منذ صار مستشفى الكويت على بعد عشرين قدماً فقط من الشارع الرئيس، ولا يفصله عنه سوى سياج من الأسلاك الحديدية.

وفي الواقع، لقد كنا محظوظين، هذا العام، بحصولنا على بائع كتب ممتاز، اسمه «ميشيل»، للعمل في المستشفى. فكان هذا الرجل يأتي إلينا كل صباح، ويتحدث مع المرضى، ويقرأ عليهم مقاطع من الإنجيل، كلما سمحت له الفرصة. واستطاع ميشيل،

خلال هذه الفترة، بيع الكثير من الكتب المسيحية، وأصبح المرضى يعرفونه، ويرغبون في التحدث معه.

وفي هذا العام، لم نقم بأي رحلات إلى خارج الكويت. لكن، في مقابل ذلك، سررت كثيراً، في أحد الأيام، عندما قام أحمد عبد اللطيف، وهو شخصية معروفة، من الشارقة، وابن الوكيل السياسي البريطاني هناك، بزيارة ودية لي في الكويت.

وعلى الرغم من الساعات القليلة، التي أمضاها هذا الرجل، الذي أعرفه منذ ثماني سنوات على الأقل، إلا أنني شعرت بأنني أمضيت معه وقتاً طويلاً. وطلب مني أن أزور الشارقة أو دبي، وأكد لي أنني سألقى ترحيباً حاراً في اي وقت أحضر إلى هناك، على الرغم من المشاعر القوية المعادية للأجانب في هاتين المنطقتين.

وقبل مغادرته، ترك لي أحمد عبد اللطيف عنوانه البريدي الكامل. وقال إنه يأمل في أن أكتب إليه، إذا قبلت ضيافته في الشارقة.

المبشرة أليزابيث كانتين تتحدث، العام ١٩١٣،

عن العمل النسائي في البصرة

نساء البصرة يلبسن العباءة. . . وأخر طراز

صحيح أن أعمال الإرسالية الأميركية في مدينة البصرة في العراق، قد بدأت في فترة مبكرة، إلا أن العمل وسط النساء تأخر لأسباب كثيرة.

وعلى الرغم من هذا التأخر، كان العمل الطبي هو أقدم عمل منظم لنساء الإرسالية في البصرة، حيث بدأ في العام ١٩٠١، وصار، مع الوقت، أضخم عمل طبي للنساء، في المناطق التي تعمل فيها الإرسالية الأميركية.

وفي العام ١٩١٣، كتبت المبشرة أليزابيث كانتين موضوعاً عن العمل النسائي في البصرة، قائلة.

لو لم تكن هناك طبيبات في مستشفى البصرة، فإن معظم، بل ربما جميع اللواتي يعالجن ويتعالجن، الآن، ما كنّ ليحضرن مطلقاً. ولولا ذلك، لما حقق العمل الطبي الخاص بالنساء هذا التقدم الملحوظ. فالمعالجة لا تقتصر على النساء المسلمات فقط، بل تشمل أيضاً المسيحيات واليهوديات، اللواتي يسكنّ البصرة.

فمستشفى «لانسن» التذكاري، الذي تديره الإرسالية، هو المكان الوحيد في البصرة كلها، الذي تستطيع فيه النساء، من جميع الأجناس والديانات والطبقات، الالتقاء مع بعضهن بعضاً. هنا في المستشفى، تختلط ألوان وملامح وثياب النساء اللواتي يحضرن يومياً. فهناك نساء مسيحيات، وبروتستانتيات وكاثوليكيات معاً، واليهوديات بأقنعتهن، والمسلمات بلباسهن المتغير دائماً، ولكنهن يشتركن جميعاً في لبس العباءة السوداء الطويلة فوق

ثيابهن. وهكذا نجد بين النساء المريضات تشكيلة متنوعة، لا تخلو من الطرافة. وفي جناح واحد من المستشفى، تمكن مشاهدة امرأة تركية وبدويتين من العرب وامرأة فارسية وامرأة زنجية وكاثوليكية. . . وهكذا.

وتأثير العمل الطبي النسائي لا يقتصر على ذلك طبعاً، بل إنه يمتد مثلاً إلى أبعد من البصرة نفسها. فالكثير من المرضى يأتون من الناصرية والعمارة، وبعض المدن الواقعة على نهر دجلة أو القريبة من البصرة، بل إن بعضهن يأتين من المحمرة في فارس.

وإلى جانب معالجة النساء، يبحث الأطباء والمبشرون كل الطرائق لإرشادهن إلى المسيح. ولكن العمل التبشيري لا يصمد طويلاً مثل العمل الطبي، على الرغم من ان الاثنين ينطلقان من مكان واحد، هو المستشفى.

ومن خلال تجربتي، فقد وجدت أنه لا يوجد أفضل من قضاء بعض الوقت، في الصباح، في المستشفى، مع النساء اللواتي يحضرن للعلاج. فنتائج هذا الوقت تثمر دائماً الحصول على دعوات عدة لزيارة بيوت جديدة. كما أن القيام بالموعظة بالمسيح في أجنحة المستشفى، هو أكثر الأعمال بهجة تقريباً وسط النساء؛ فهو يؤتي نتائج جيدة، ويكون أفضل بكثير من قضاء الوقت في أنواع التبشير التقليدية الأخرى.

ويمكن القول إن زيارة بيوت الطبقة المتوسطة، أفضل من زيارة بيوت الطبقتين الغنية والفقيرة، من وجهة نظر التبشير. فالطبقة المتوسطة ذكية أكثر من غيرها، ومستعدة للإصغاء لمواعظ الإنجيل. بينما نجد أن الاغنياء، لا يبالون بالموعظة، على الرغم من أنهم اكثر تعليماً واعتباراً.

وقد شاهدت بنفسي امرأة في أحد بيوت الطبقة المتوسطة تصغي باهتمام شديد لحكاية الفلاح، الموجودة في الإنجيل، كما ترويها المبشرة بأسلوب مسبط ومشوق.

والكثير من أبناء الطبقة المتوسطة يعملون في بساتين النخيل المنتشرة في البصرة، والتي يستطيع الإنسان أن يقضي فيها ساعات جميلة ومفيدة في القراءة، وأحياناً، في الثرثرة مع النساء، عندما يزورهن في البساتين.

وعلى عكس هؤلاء، نجد الطبقة الفقيرة تعاني الجهل والتخلف إلى درجة يصعب معها أن يفهموا حتى قصص الإنجيل البسيطة. ولكن، ربما لهذا السبب، هم أكثر حاجة من غيرهم إلى التعليم.

وهناك نشاط نسائي آخر، تقوم به الإرسالية، هو مدرسة الفتيات. فبعد أمل وانتظار طويلين، تم افتتاح هذه المدرسة، في البصرة، في نهاية العام ١٩١٢.

وتقوم المدرسة بأعمال مهمة كثيرة. فبجانب التدريس اليومي المنتظم للغتين العربية والإنكليزية، فإن الفتيات يتعلمن الخياطة وأعمال التطريز والنسيج أيضاً.

ومنذ فترة، عبر بعض النساء التركيات عن رغبتهن الشديدة في أن تتعلم بناتهن، التلميذات في المدرسة، خياطة وتصميم الملابس حسب الطرز الأميركية. والواقع، إننا عندما نرى النساء التركيات، وهن يلبسن الثياب على الطرز الفرنسية، ولكن بألوان متنافرة وغير معقولة، نشعر عندها بأنه من الأفضل مساعدتهن، أوتعليم بناتهن اللبس والخياطة وفق الطرز الحديثة والذوق المناسب.

ومع أن العمل في المستشفى والمدرسة، والحضانة التي افتتحت، لتوها، يحقق نجاحات جيدة، إلا أن عملنا النسائي، لا يمكن أن يتطور ويتقدم من دون الحصول على عاملات محليات لسد النقص الشديد، الذي نعانية في هذا المجال.

ففي الوقت الحاضر، لا يوجد عندنا في المستشفى سوى عاملتين فقط. وهناك مبشرة واحدة، لاتعمل طول الوقت أيضاً. وفي المدرسة، لا يوجد لدينا سوى مدرّستين.

كذلك، نحن في حاجة إلى ممرضات أميركيات متدربات، يخصصن كل وقتهن للعمل على راحة المرضى والإشراف على أعمال المستشفى المختلفة.

المبشرة ميني دايكسترا تحكي، العام ١٩٠٩،

تجربتها في مدرسة البنات في البحرين

تلميذات يدرسن، بلا روزنامة ولا ساعة

بدأت مدرسة البنات في البحرين، التابعة للإرسالية الأميركية، عملها مع السنوات الأولى من هذا القرن. وكانت البدايات متواضعة؛ فالفصول صغيرة، والتلميذات قليلات، ولا توجد مدرسات متفرغات لهذا العمل.

وعلى الرغم من كل شيء، أستمرت المدرسة في تقديم الدروس، وفي مواجهة الصعوبات التي لا تنتهي، كما راحت ترويها المبشرة ميني دايكسترا، العام ١٩٠٩ :

لعل أول ما يلفت النظر في مدرسة البنات، هنا في المنامة، هو أن تلميذاتها لسن جميعهن من العرب. فالكثير منهن فارسيات، ويتمتعن بحرية أكبر نسبياً من العربيات. وطبعاً، هذه المسألة تجلب الكثير من الصعوبات، بالنسبة إلى المدرسة. فالمدرسات، عليهن معرفة اللغة الفارسية بجانب اللغة العربية. ولكن حتى الآن يستحيل بالنسبة إليهن، القيام بذلك، بسبب افتقادهن الوقت، حيث ما زلن يدرسن العربية، ناهيك صعوبة الحصول على مدرس لغة فارسية أيضاً.

وليس هناك تعليم إجباري في البحرين، ولا في أي مكان في الجزيرة العربية. كما لا يوجد أي قانون يمنع تشغيل الأطفال. إن أولياء الأمور، هنا ليسوا متعلمين، فلماذا، إذا، يتعلم أطفالهم ولا سيما بناتهم ؟

المدرسة لا تخلو من المشكلات، طبعاً. ولتشجيع حضور الفتيات بانتظام إلى المدرسة، يتم إعطاؤهن جوائز وهدايا، كل يوم جمعة، ولا سيما اللواتي يحضرن جميع أيام الدراسة، باستثناء عطلة السبت والأحد.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه يبدو أن التزام هذا القانون مسألة صعبة. فجميع التلميذات، لا توجد لديهن في بيوتهن روزنامات ولا ساعات. وهكذا فإن جميع الأيام، بالنسبة إليهن، متشابهة، وعطلة السبت والاحد شيء يصعب عليهن تذكره، فبدلاً من حضورهن يوم الإثنين، أي بعد الإجازة، نجدهن يحضرن صباح الثلاثاء، والسبت أنهن لا يستطعن تتبع الأيام.

وعندما نخبرهن بخطئهن، تمتلئ عيونهن بدموع الخيبة والاحباط، ولكنها سرعان ما تتجمد أو تختفي، عندما نرثي لحالهن، ولا نقوم بلومهن على الغياب، الذي يتكرر بين حين وآخر.

ولمواجهة هذه المشكلة، تقوم مدرسات المدرسة بشرح أيام الأسبوع، ويقمن في يوم الجمعة بإفهامهن أنه «لن تكون هناك دراسة غداً واليوم الذي يليه، وعليكن الحضور يوم الإثنين»، ويكرر هذا الكلام عليهن قبل انتهاء الدراسة يوم الجمعة.

لكن، على الرغم من كل هذه المحاولات، لا نزال نشاهد الكثير من الفتيات واقفات أمام بوابة المدرسة، صباح كل يوم سبت وأحد، ولا يعرفن أن هذا اليوم، هو السبت أو الأحد. ويبدو أن الكثيرات منهن يعتقدن بأنه يجب الاحتياط، والحضور كل يوم حتى تفتح المدرسة أبوابها في يوم الإثنين. وتخبرهن المدرسة بأن أسبوعاً آخر قد بدأ.

والفتيات في البحرين لديهن سمات وخصائص متنوعة من الطبائع والعادات، مثلهن مثل التلميذات الأميركيات. فبينهن تلميذات مجدات وكسولات. وهناك جيدات وغير صالحات عابسات ومبتسمات.

وبجانب ذلك، في المدرسة تلميذات جميلات يعانين مشكلات التبني وفقر عائلاتهن واضطرارهن إلى العمل بعد الدراسة، والقيام بالأعمال المنزلية وغير ذلك. إحداهن اسمها «فاطمة». وهي فتاة يبلغ عمرها ثماني سنوات تقريباً، لا تحضر إلى المدرسة إلا نادراً، والسبب أنها مشغولة جداً.

ففي الصباح الباكر، تقوم بأعمال الخياطة، وتجلب الحطب لبيتها، ثم تذهب السوق لشراء الحاجات العائلية، مثل السمك والخضار والدهن وغير ذلك. وعندما تنتهي كل هذه الأشياء، تقوم بوضع حاجاتها في مواجهة باب المدرسة وتبيع للتلميذات كل ما هو موجود في دكانها الصغير. وهي لا تبالي إذا كان ذلك اليوم من أيام الصيف الحارة أو من أيام الشتاء الباردة.

وعلاوة على ذلك، تقوم فاطمة بصنع دمى وألعاب للأطفال، وتبيعها في دكانها. وهي تقوم بصنع هذه الدمى بمهارة كبيرة، على الرغم من أنها لم تتعلم ذلك من أحد. ويحدث كثيراً أن لا تجد فاطمة زبائن لبضائعها المتواضعة. ولذلك، فإنها لا تتردد في اللعب مع الأطفال الذين يلعبون أمامها، وتشعر بطفولتها ولو لبعض الوقت.

وبجانب البهجة والإشراق في وجه فاطمة، فهي تبدو أيضاً سعيدة ودائمة الابتسامة، مهما كانت مشغولة بعملها. كما تظهر الألعاب والدمى التي تقوم بصناعتها وجود خيال مبدع لديها. وطبعاً، فإنها لو استطاعت الانتظام في المدرسة، لطورت ما تقوم به من ألعاب، ولكنها لا تستطيع ! وهذه هي مشكلتها الكبرى.

وهناك فتاة صغيرة أخرى تشبه فاطمة، لكنها تعاني مشكلات في بصرها. وبسبب حياة البؤس والقذارة التي تعيشها، تفاقمت مشكلتها، وأصبحت لا ترى إلا بعين واحدة فقط. وعلى الرغم من ذلك، فقد استطاعت، بفضل مثابرتها واجتهادها وعناية مدرساتها بها، تحقيق تقدم كبير في المدرسة. لكنها بعد فترة، راحت تتغيب عن المدرسة، يوماً بعد يوم، حتى أصبحت لا تأتي إليها مطلقاً. وفي أحد الأيام شاهدناها في الشارع. وعندما سألناهاعن سبب غيابها، قالت إن والدها توفي. «ولذلك، يجب علي أن أعمل حتى أحصل على نقود».

أتذكر، الآن، حكايات كثيرة عن الفتيات اللواتي كن، في بعض الأيام، معنا في المدرسة، بينما أشاهد مناظر يومية لفتيات أعرفهن جيداً، وكن تلميذاتي، وهن يضعن القدور والصحون فوق رؤوسهن، عند دهابهن أو مجيئهن من السوق يومياً.

لقد تزوج الكثير منهن، وأصبحن أمهات، وعليهن مسؤوليات كثيرة. وكثيراُ ما كنت أسمعهن يقلن لبعضهن بعضاً :«بسرعة. . . يجب أن أذهب إلى البيت، وإلا فإن زوجي سيضربني ».

تذكرت هذه الحالات، ووجدت نفسي أتذكر حكايات فتيات أخريات في مدرسة البنات في البحرين.

المبشرة سي. ستانلي ميلري تكتب، العام ١٩١٦، عن الكويت

ضيافة عربية في الكويت

لم تكن سي. ستانلي ميلزي مبشرة وطبيبة عادية، بل إنها كانت أكثر من ذلك. فمنذ وصولها إلى الكويت، للمرة الأولى، في كانون الثاني/يناير ١٩١٥، وهي تعمل بنشاط في الإرسالية، وتتعرف إلى نساء الكويت، وتحاول التبشير وسطهن.

وأكثر من ذلك، عملت المبشرة ميلري على التعرف إلى عادات وتقاليد المجتمع الكويتي، آنذاك، وراحت تزور العديد من الشخصيات النسائية، وتقيم معهن أوثق العلاقات.

وفي بداية العام ١٩١٦، سجلت في مجلة الإرسالية الأميركية حكاية زيارتها لإحدى النساء الكويتيات البارزات، وكتبت تقول:

عندما دخلنا الغرفة، قامت مضيفاتنا بالنهوض، وقلن، بابتسامة ودية، رداً على تحيتنا :مرحباً، مرحباً، كيف حالكن ؟نتمنى أن تكونن بخير إن شاء الله.

وفي الحال، أشارت السيدة إلي كراسي، لا حظنا أنها وضعت ورتبت خصيصاً لزائرات أوروبيات من أمثالنا، بينما كانت سيدة البيت تجلس على سجادة فاخرة أرضاً.

وفي الغرفة، كان عدد كبير من الوسادات في مقابل الجدار، إضافة إلى عدد من الوسادات الصغيرة والناعمة، كانت موضوعة بالقرب من السيدة، لكي تستطيع إسناد مرفقها، عندما تتعب.

وقد كانت سيدة البيت صغيرة السن. وعلى الرغم من بدانتها الظاهرة، إلا أنها كانت تمتلك بشرة ناعمة. كما أضفى عليها لباسها العربي الجميل صورة جميلة وبهية. وبدا ثوبها المربوط بإحكام بوساطة وشاح حريري ناعم وردي، جميلاً. كما لبست فوقه ثوباً ذهبياً مصنوعاً من الحرير أيضاً. وحول رأسها، كانت السيدة تلف حجاباً أسود، يسمى «ملفعاً»، يصل حتى ذقنها، وينتشر على صدرها، مما يجعل اللونين الوردي والبني يظهران فنية في الألوان.

وعندما اختلست النظر إلى حجابها، وجدت صفاً من القطع الذهبية الصغيرة المخيطة على أطراف الحجاب، بحيث يتطابق على نحو تام مع تاج رأسها. أما عباءتها السوداء، المصنوعة من قماش الحرير، والمطرزة بخيوط ذهبية حول العنق والكتفين، فقد كانت تضعها فوق رأسها. والنساء الجالسات، كن يضعن العباءة فوق رؤوسهن، بدلاً من أن يضعنها فوق أكتافهن، وذلك لتغطية أنفسهن بسرعة، عندما يظهر رجل غريب فجأة.

وبعد جلوسنا، سئلنا مرة أخرى عن صحتنا، وتبادلنا مع السيدة وزميلاتها التحيات والسلام. وعلى الأرض، وفي مواجهة سيدة البيت، كان ثمة علبة سجائر أضافة إلى كبريت ومنفضة لرماد السجائر. وعلى الفور وضعت السيدة يدها على العلبة، وأشعلت سيجارة. وفي أثناء تناولها للسيجارة، كانت يداها تبدوان بيضاوين بسبب كثرة الخواتم.

فكانت أصابعها مملوءة بالخواتم الفيروزية وخواتم الياقوت واللؤلؤ.

ثم قامت السيدة بخلع عباءتها، ووضعها خلفها، لكي تستريح اثناء التدخين. وعند ذلك، سنحت لنا فرصة لرؤية اساورها. فقد كانت هناك خمسة أساور في كل ذراع، عرض كل سوار منها من ربع بوصة إلى بوصة واحدة. أحد الأساور يتكون من طوق ذهبي خالص غير مزخرف. أما الأساور الأخرى، فكان عليها أعمال نقش، بينما في بعضها أعمال تخريم وحبات لؤلؤ. والسوار الأخير القريب من معصمها، كان عليه خرز كهرمان كبير. على الرغم

من ذلك، فقد كان لباس سيدة البيت بسيطاً جداً هذه المرة، بعكس المرات السابقة، التي زرناها فيها، حيث كانت تتزين بقلائد كثيرة وسلاسل تصل إلى خاصرتها.

لقد كان يوم زيارتنا للبيت يوماً حاراً. وكنا قد مشينا، قبل وصولنا إلى هنا، فترة طويلة. ولذلك، فقد كنا مسرورين عندما نادت السيدة إحدى الخادمات لكي تشغل المروحة. ومع الوقت جاءت إلى الغرفة نفسها بعض النسوة من جناح الحريم وجلسن هادئات على الأرض.

كانت الغرفة التي جلسنا فيها تحتوى على أثاث بسيط إلى أقصى درجة، ولكن السيدة الصغيرة، جعلت الغرفة ذات جاذبية بسبب لطافتها وطيبتها. وفي الغرفة نفسها، وجدنا السجاد الأوروبي الرخيص مفروشاً على الأرض، وسريراً حديدياً أسود في إحدى الزوايا. وكانت الأغطية على السرير، بينما كان تحت السرير أشياء كثيرة، مثل صناديق وعلب وسلة مملوءة بأدوات الخياطة.

وعندما أشعلت السيدة سيجارتها الثانية، قامت إحدى النساء، وكانت جالسة بقربها، وسألتنا عن رغبتنا في التدخين، فأجبنا بأننا لا ندخن.

بعدما، قامت سيدة البيت باستدعاء مساعدتها الخاصة، فطوم، وهو اسم التحبب إلى فاطمة. وفي الحال، حضرت وابتسمت لنا، وانحنت على الارض لكي تستمع إلى أوامر سيدتها، ثم اختفت فطوم في غرفة خارجية من البيت، ولكنها سرعان ما عادت بصينية من العصير (الشربات). وكنا نستطيع سماع رنين الكؤوس والثلج، وهي تمشي قادمة إلينا. وخلفها جاءت خادمة أخرى تحمل منشفة حمام مطوية على كتف يدها اليمنى. وعندما انتهينا من شرب الشربات، قامت الخادمة وقدمت إلينا المنشفة لغسل شفاهنا بها.

وفي أثناء ذلك، راح العديد من النساء يسألننا عن بلادنا وأحوالها. وقد سمعناهن يشهقن، عندما قلنا إن رحلتنا استغرقت شهرين في البحر حتى وصلنا إلى الكويت.

وقالت لنا إحدى النساء :ألم تخفن أو تمرضن، وأنتن في عرض البحر ؟ وردت عليهن سيدة البيت قائلة :لا. إنهن لا يمرضن، فهن متعودات الرحلات الطويلة. ثم سألت إحدى السيدات عما إذا كانت أصيبت بدوار البحر من قبل، فأجابت هذه المرأة :لا. لكن المرة الوحيدة التي سافرت فيها من هنا، كانت إلى البصرة، على متن إحدى البواخر. وكانت الرحلة طويلة بالنسبة إلي. لكن يبدو أنكن اصبحن من بنات البحر.

وبعد ذلك جاءت الخادمة ووضعت طاولة صغيرة جداً في مواجهتنا، وقامت خادمة أخرى بوضع صينية كبيرة عليها، وقامتا بإحضار المناشف للتنظيف والغسيل.

في وسط الصينية صحن من التفاح، وصحون تحتوي على البطيخ، على هيئة مثلثات صغيرة. وصحون أخرى فيها كرات من اللحم والجوز وحلوى عربية. وقد تم تشجيعنا على

تذوق جميع أصناف الأطباق الموجودة على الصينية. وعندما انتهينا، أخبرنا بأننا لم نأكل شيئاً.

وقالت إحدى النساء، وهي جالسة على الأرض، تتناول الطعام من صينية كبيرة، إننا لا نستريح إلى الاكل بالشوك والسكاكين، وخصوصاً عندما نكون جوعى. وهنا ضحكت سيدة البيت وقالت : لاتخافي، إنهن يعرفن أننا بدويات ونأكل بأيدينا.

وبعد الأكل، قدمت إلينا أكواب من الحليب الممزوج ببعض الشاي. وعند الانتهاء منه، تم رش أيدينا بماء الورد.

وفي هذا الوقت، راحت الشمس تغيب، فوجدنا أننا جلسنا عند مضيفاتنا فترة كافية، وعلى الرغم من ذلك، لم نستطع القيام بأي حركة تدل على عزمنا على الخروج، عندما جاءت القهوة.

وأخيراً سمعنا أصوات فناجين القهوة الصغيرة المتراكمة فوق بعضها بعضاً، وظهرت خادمة سوداء، كانت تحمل إبريق القهوة النحاسي في يدها اليسرى، والفناجين في يدها اليمنى. وراحت تصب مقدار ضئيلاً من القهوة لكل واحدة منا، وشربنا ثلاثة فناجين. وعند الفنجان الثالث، قمنا بإشارة صغيرة وقلنا : «إن شاء الله، لا تكون قهوتكن باردة أبداً». وهذا تعبير عربي يقصد منه أن تكون دائماً بصحة جيدة لصنع القهوة الساخنة.

وبعد القهوة، نهضنا، فقالت سيدة البيت إن الوقت لم يحن بعد للخروج. ولكنها راحت تودعنا قائلة :أرجو ألا تغبن عنا طويلاً. ليحفظكن الله ويرعكن.

ثم مضينا عبر الشرفة، ونزلنا إلى تحت، وعبرنا فناء المنزل، حتى وصلنا أخيراً إلى الشارع.

مبشرة اسكتلندية تروي، العام ١٩١٥، تجربتها

في مستشفى يمني :

أطفال عدن يخافون من البسكويت

في بداية العام ١٨٨٦، وافقت السلطات الاستعمارية البريطانية في عدن على بناء أول مستشفى عصري في هذا الميناء الزاهر. وبعد أسابيع قليلة من حصول «اتحاد كنائس اسكتلندا الحرة» على تراخيص البناء والعمل، أرسل الاتحاد بعض العمال من اسكتلندا، وباشروا العمل بسرعة. ثم انضم إليهم المبشر كاثى فالكونر، الذي بدأ حياته العملية في مستشفى عدن، بمنطقة الشيخ عثمان.

وبعد ثلاثين سنة تقريباً، سار العمل في المستشفى بهدوء. وفي هذا الوقت، أي في العام ١٩١٥، حضرت الآنسة ايه. فارير عضو الإرسالية الاسكتلندية، إلى عدن للعمل في

المستشفى، وكتبت تقول عن تلك التجربة، في مجلة الإرسالية النسائية، التي يصدرها اتحاد كنائس اسكتلندا:

إن الرحلة من إنكلترا إلى عدن تستغرق ١٢ يوماً في أقل تقدير. وعند وصولنا إلى الميناء، تأخذنا قافلة جمال إلى مقر الإرسالية في منطقة الشيخ عثمان، التي تبعد عشرة أميال تقريباً عن عدن.

طبعاً، ليس في الطريق القصير أي شيء لافت للنظر. لكن حمدنا الله على وجود أشجار النخيل وأشجار أخرى، وعلى وجود طيور مرحة صغيرة، تغني وكأنها ترحب بنا بفرح وبهجة.

يومنا، هنا، يبدأ في وقت مبكر جداً. ففي الساعة الخامسة صباحاً، نستيقظ من النوم. وبينما نستعد لرؤية الفجر الشرقي المتألق والجميل، تستعد العربة الخاصة بالإرسالية، والمتصدعة بشكل واضح، لأخذنا إلى المستشفى القريب.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى نصل إلى السوق الرئيسة. وهنا نشاهد مئات الجمال، تستريح بعد عناء رحلات طويلة داخل اليمن نفسها، وهي محملة بالجلود والخضراوات والمتمور والخشب والقهوة وغيرها. أما العرب من أهل اليمن، الذين قادوا هذه الجمال، فإنهم يلقون بأجسادهم المتعبة في أي مكان تقريباً، فبعضهم ينام فوق الأرائك وبعضهم الآخر يجلس لإطعام الجمال الجائعة، وآخرون يستلقون كيفما اتفق، أو على الأرصفة العارية.

وأول ما يلفت النظر هو لباس اليمنيين أنفسهم. فلباسهم يتكون من قطعة طويلة من القماش، ملفوقة حول خواصرهم (الأزر) تغطي النصف التحتي من أجسامهم. أما النصف الأعلى، فتجده مشحماً بجوز الهند أو زيت الزيتون. وشعورهم عادة ما تكون مجعدة، ومربوطة من الخلف بالحبال.

وبجانب الرجال، هناك مجموعة من النساء، يضعن أغطية من القماش على وجوههن.

وفي سوق عدن الصاخبة، تتراقص الماعز في كل مكان. وتجدنا تلتقط أي شيء، سواء كان ورقاً أم خبزاً ام غيره. وهي بذلك تكنس الأرض، بجانب فائدتها الأولى والمهمة، وهي تقديم الحليب الطازج للأهالي يومياً.

وفي أزقة السوق مجموعة من المقاهي القذرة. وحول هذه المقاهي تلتف مجموعة من الصبيان والفتيات، يشترون بعض الكعك الذي يباع ساخناً.

وبعد مرورنا السريع في سوق عدن، كان علينا أيضاً السير وسط أزقة، تصطف فيها البيوت الطينية. وهنا، شاهدنا النساء يختلسن النظرات من خلف «خياش» قذرة معلقة على مداخل بيوتهن، كأنها أبواب. أما الأطفال العراة، فكانوا يتراكضون أمامنا ويتصايحون.

وفي النهاية، فإن هذه العربة المتصدعة، أوصلتنا إلى مستشفى الشيخ عثمان.

هذا هو المسشتفى، اخيراً. ففي الطابق الأرضي، يستلقي عشرات من المرضى الفقراء والجياع، وكثير من هؤلاء عميان أو لديهم أمراض مختلفة في عيونهم. وبعضهم الآخر عرجان، ويعانون قروحاً وجروحاً في أرجلهم. وبعض الأطفال المرضى مسلولون، ويجلس بقربهم أطفال صوماليون جياع. وتحت ظلال الأشجار القريبة من المستشفى، ترقد أعداد قليلة من المجذومين، الذين أتوا من التلال البعيدة، وكل هذه الأشياء معاً بدت لي مشهداً فظيعاً، يصعب وصفه او حتى تخيله.

وبينما أنا أصعد إلى الطابقين اللذين يحتويهما المستشفى، راح قلبي يهبط مع كل درجة سلم أصعدها. وكانت مشاعري تهتز أمام مشاهد البؤس، وفي مواجهة العمل الإنساني الذي أرسلت للقيام به في هذا المكان البعيد.

إنها الساعة السابعة وخمس وأربعون دقيقة صباحاً. هنا سمعت داخل أحد الأجنحة صلاة لشكر وترتيل ترانيم في حب المسيخ. وعندما وصلت إلى هذا الجنائح، شاهدت بعض المسيحيين، وهم يلبسون أثواباً بيضاء طويلة، ويعتمرون طرابيش حمراء. وكان معهم بعض العرب الأثرياء، وكانوا يلبسون سراويل وقمصاناً على الطريقة الأوروبية. وبجانبهم، وقفت مجموعة من الصوماليين يرتدون ياردات من الأقمشة القطنية الخام، ويحملون في أياديهم عصياً ضخمة الحجم. كان معظم الحضور في هيئة قذرة، بل إن بعضهم كانوا شبه عراة.

وفي الواقع، إن معظم المرضى الذين يأتون إلى المستشفى، يحضرون بعد قضاء فترة من خمسة أيام إلى أربعين يوماً في السفر. ويكون هؤلاء غالبية مرضى المستشفى، ومعظمهم يحتاجون إلى عمليات عاجلة لإنقاذ حياتهم.

وعلاوة على الرجال، هناك نساء قليلات يحضرن إلى المستشفى، ويطلبن التعاطف والمساعدة أكثر من أي شيء آخر، بسبب حياتهن البائسة. فالملجأ الوحيد لهن ولأطفالهن هو المستشفى. وهذا ما يجعلنا نشفق عليهن فنقوم بتعليمهن كيفية الاعتناء بالأطفال.

وبعد انتهاء صلاة الشكر القصيرة، التي يشارك فيها الجميع، نذهب جميعاً إلى العمل. ولكن عندما نبدأ العمل، نكتشف أن اليوم يمضي بسرعة، كالعادة، على الرغم من أن المرء يامل في القيام بأعمال كثيرة. فهناك مرضى يجب رؤيتهم، وأوامر يجب أن تنفذ، وأعمال تعقيم يجب القيام بها، علاوة على الاشغال التي لا تنتهي، مثل رتق أغطية وثياب المستشفى.

أما العمليات، فهي تقام في المستشفى، يومي الثلاثاء والخميس من كل اسبوع، وهي، على العموم، عمليات كثيرة، توازي عدد عمليات المستشفيات في اسكتلندا تقريباً. ولكن بعضها صعب جداً، بسبب المعالجة بالكي، أو عمليات تطبيب الجروح، التي تنفذ من دون نجاح، قبل مجيء المرضى إلى المستشفى.

وفي كثير من الأحيان، نواجه بمعتقدات غريبة، كان يأتينا مريض يعاني ألماً في رأسه، ونعلم أن علاجه، في اعتقاد الناس، يمكن أن يكون بوساطة الكي فوق رجله. وطبعاً، هناك الكثير من المشكلات التي يحضرها المرضى معهم، بسبب بعض المعتقدات والعادات.

ولكن بعض الحالات تكون أكثر خطراً. فما زلت أتذكر جيداً حين أحضر سته أشخاص جريحاً إلى المستشفى، وقد حكى لي أحدهم قصة هذا الجريح قائلاً إنه كان هناك وليمة عائلية، وكان بين المدعوين عداوات عائلية وقضايا ثأر. وبعد الانتهاء من الطعام، تم رش ماء الورد على أيادي الحاضرين، حسب العادات العربية. وفجأة، نهض شاب وقطع بسكين حادة يد أخيه اليسرى، وقطع بالسكين نفسها أنفه أيضاً. وعندئذ حدثت مشاجرة عنيفة، انتهت بجرح أربعة اشخاص على الأقل.

وبعد الجريح الأول، وصل باقي الجرحى إلى المستشفى، وتم علاجهم وخرجوا، وهم في صحة جيدة.

وفي عصر كل يوم تقريباً، تحضر مجموعة من الأطفال الصغار، بالقرب من شرفة منزلي، وأقوم بإعطائهم البسكويت والشاي. في البداية، كانوا متخوفين من هذا الطعام الغريب. ولكن مع الوقت، أصبحوا يحبون البسكويت اللذيذ.

وفي بعض أوقات فراغي، أقوم بزيارة بعض النساء، اللواتي يعشن في أكواخ طينية بالقرب من عدن. وأقوم بكل ما يمكنني القيام به من مساعدة.

وعلى الرغم من البؤس الذي تعيشه امهات عدن، إلا أن أي طفل يولد، يحصل على بعض العناية. ففي لحظة ولادته، تكحل عيناه، ويجري تجميل وجهه الأسمر بالبودرة الصفراء، ويتم دهن رأسه بالزيت، وتوضع على رقبته تعويذة لتحفظه من الشياطين. ومع أن البنين هنا، هم محل الاهتمام والعناية أكثر من البنات، إلا أن البنات يعتبرن أكثر قيمة وأغلى ثمناً، لأن آباءهن سيتمكنون من تزويجهن بالرجال الذين يستطيعون إعطاءهم نقوداً أكثر، كمهور.

المبشر شارون توماس يروي مشكلات بناء مستشفى البحرين، العام ١٩٠٢:

«الورنيش» من لندن

والحجارة أحضرتها الحمير

بدأ عمل الإرسالية الأميركية في البحرين في العام ١٨٩٢، في مبنى استأجرته، ويقع في وسط مدينة المنامة. وبعدها، تمكنت الإرسالية، بقيادة المبشر المشهور، صموئيل زويمر، من الحصول على قطعة أرض كبيرة، بنت عليها مستشفى ومباني سكنية وكنيسة ومدرسة.

وخلافاً للمتوقع، واجهت الإرسالية أثناء البناء مشكلات لم تخطرعلى بالها، تمثلت في علميات البناء نفسها، كما يروي ذلك المبشر شارون توماس، في تشرين الأول /أكتوبر العام ١٩٠٢، في مجلة الإرسالية الأميركية، حيث كتب يقول:

أستطيع أن أقول إن مبنى مستشفى البحرين، قد قارب على الانتهاء، على الرغم من أنه لا تزال هناك حاجة إلى بعض الأعمال.

فبعض التجهيزات، التي طلبت من لندن، مثل طلاء المباني وطلاء الاخشاب (الورنيش) والأقفال ولوحة الحروف الحديدية لاسم المستشفى، كلها لم تصل بعد. وقمنا، علاوة على ذلك، بصنع أبواب ونوافذ المستشفى في البحرين، بدلاً من الهند، كما تم التفكير في ذلك سابقاً على أنه أفضل.

أما السقوف، فقد صنعت من الطين والجص، بدلاً من الحديد، إذ وجدنا أن ذلك أرخص ثمناً، ويمكن أن يعطي المبنى برودة جيدة أثناء الصيف. كما أقمنا عدداً من الشرفات المحيطة بالمبنى، وهكذا، فإن أشعة الشمس ستستقبلها نوافذ وأبواب المستشفى في أي وقت.

وقد استخدم لبناء المستشفى حجارة مرجانية، قطعت من البحر، وأحضرت على ظهور الحمير. كما تم جلب الجير من الجزر المجاورة. وكان علينا حرقه وتجهيزه لوضعه على أرضيات المبنى.

وفي البداية، أخبرنا صاحب السفينة، الذي أردنا الاتفاق معه، عن صعوبات إحضار الجير. وحدثت مشكلات كثيرة حول صفقة الجير مع المتعهد المحتال، الذي تعهد بإحضاره. فقد اكتشفنا بعد أيام عدة من تسلمه مقدم المبلغ المتفق عليه، أنه لم يذهب إلى الجزر، وعرفنا من أصدقائه أنه غير مبال بذلك ما دام قد تسلم النقود. وعندما ذهبنا إليه، افتعل الكثير من المشكلات واختلق الكثير من الأسباب. وبعد مداولات كثيرة، وافق على إحضار الجير المطلوب، ولكن في مقابل زيادة الأجر.

وعلاوة على مشكلات الجير، واجهنا أيضاً الكثير من المصاعب مع البنائين وبقية العمل. فقد وجدنا، مع الوقت، أنهم يحتاجون إلى مراقبة دائمة. فإذا تركوا وحدهم لبعض الوقت، فإن كل ما يفعلونه هو الثرثرة والتدخين، ويبقون على هذا الوضع ساعات طويلة. وليس هذا فقط، بل إن أشغالهم متواضعة المستوى، وأحياناً ينجزون أعمالهم بطريقة معاكسة، وغير المتفق عليها. كل ذلك يتم، طبعاً، أثناء غيابنا عن مراقبتهم، وتكون النتيجة تعطيل العمل وضياع الوقت ومواد البناء.

لقد برزت فروق كثيرة وواضحة بين طرائق تنفيذ البناء هنا، وبينها في أميركا. فهناك، تتفق مع مقاول يبني لك ما تريده، حسب مخطط واضح ومتفق عليه، وضمن شروط معينة، ويتم ذلك ضمن وقت محدد. وإذا أخل بأحد هذه الشروط، يخسر بعض المال المتفق عليه. أما إذا كنت تفضل القيام بشراء المواد بنفسك، فإنك تستطيع جلبها بوساطة الهاتف. وكل ذلك غير ميسور، هنا، على الإطلاق.

وبجانب مشكلات البناء، التي لم تنته حتى الآن، فإن انتقالنا إلى المستشفى ستصاحبه أحكام وقوانين جديدة. ونتوقع مع وصول المرضى إلى المستشفى معارضتهم للوائح الجديدة، ولكن لا بد، حيال ذلك، من فرضها عليهم من اليوم الأول، حتى تسير الأمور كما ينبغي.

وفي الوقت الذي نستعد للانتقال إلى مبنى المستشفى الجديد، فإننا نقوم بعملنا في مبنى المستشفى القديم من دون تغيير يذكر. لكن عملنا قد قل بشكل ملحوظ في الشهر الماضي؛ إذ كان ذلك الشهر هو شهر رمضان، الذي يصوم فيه المسلمون، ويمتنعون عن تناول الطعام والشراب طول النهار. ففي هذه الفترة، جاء إلينا عدد قليل من المرضى، وجميع هؤلاء كانوا يرفضون استخدام أدوية طول هذا الشهر.

وهكذا، وفي غمرة استعداداتنا للانتقال إلى المستشفى الجديد، رحنا نفكر في الأشياء التي نحتاج إليها، وما يمكن إحضاره من الخارج بوساطة أعضاء الإرسالية، الذين سيزيد عددهم في البحرين مع افتتاح المستشفى.

وأول الأشياء التي فكرنا في إحضارها من الخارج، وطلبها من أعضاء الإرسالية، بعض اللوحات المطبوعة، لتعليقها في الأجنحة وغرف الانتظار وغيرها، بجانب بعض الأشياء التي يمكن أن تزين المستشفى.

ومع أننا نمتلك بعض اللوحات المكتوبة باللغة العربية، إلا أنها تظل من دون فائدة، لأن الذين يعرفون القراءة هم قليلون جداً. كما أننا اكتشفنا أن بعض الصور التي نعلقها في المبنى القديم، مثل صور :الحيوانات، السفن، رئيس الولايات المتحدة، الخيول، بنايات نيويورك الضخمة، لا تعجب المرضى والزوار.

الطبيب بول هاريسون في عمان، في العام ١٩١٠:

حر شديد. . وأمراض كثيرة

مع أن عمل الإرسالية الأميركية، التبشيري والطبي، بدأ منذ فترة مبكرة في عمان، إلا أن هذا العمل، على الرغم من كثافته، بقي محصوراً في مناطق قليلة. وأهم أسباب ذلك هي، طبعاً، مقاومة العمانيين للمبشرين ووسائلهم.

لكن الإرسالية، كعادتها في جميع مدن منطقة الخليج العربي، لم تكن تستسلم لهذه المقاومة.

أحد هؤلاء المبشرين والأطباء، هو الطبيب بول هاريسون، الذي عاش في عمان فترات طويلة ومتقطعة.

ففي نهاية العام ١٩١٠، قام هاريسون بأعمال طبية لمصلحة الإرسالية، امتدت لبعض الأشهر، وكتب عنها، في مجلة الإرسالية الأميركية، قائلاً:

إن عملنا الطبي في عمان، يقتصر، إلى حد كبير، على مدينتي مسقط ومطرح. إضافة إلى أنه تم إنجاز أعمال بسيطة للوصول إلى المناطق الداخلية لعمان. ومهما يكن الأمر، فإن العمل في هاتين المدينتين مرض، إلى حد ما. فقد أصبح يغطي جميع مناطق عمان، حيث يأتي إلينا الكثير من المرضى للمعالجة، ولا سيما في فصل الشتاء.

العمل الطبي في أي مكان، يعتمد، في تحديد دوره، على المنطقة، والناس الذين يعيشون فيها، وعلى الامراض التي يصابون بها. وفي مدينة مطرح، فإن هذه العوامل الثلاثة موجودة، وهي جديرة بالاهتمام والعناية.

ومناخ عمان يدخل ضمن مناخ المناطق الحارة. وجميع أشهر السنة حارة، عدا شهرين فقط، في الشتاء، حين يكون الجو لطيفاً ولكن ليس بارداً، ويشبه فصل الربيع. وهكذا فإن لبس الثياب الشتوية الثقيلة مسألة غير مريحة طول أشهر السنة.

وفي الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأولى من الصيف، يكون الجو حاراً جداً. وفي هذه الأشهر، يغادر الجميع إلى مناطق ألطف، خصوصاً إذا تهيأت لديهم نقود تمكنهم من الانتقال.

والسبب في هذه الحرارة المرتفعة، يرجع إلى طوبوغرافيا المنطقة؛ فالجبال ترتفع في كل الاتجاهات، وتحجب النسمات عن مسقط ومطرح. وباستثناء ذلك، يمكن السكن قرب ساحل البحر، حيث ينتعش المرء بالنسيم. ولكن المشكلة أن الجميع لا يستطيعون العيش قرب البحر. أما بالنسبة إلينا في مطرح، فإن البيت المؤجر الذي تستخدمه الإرسالية يقع، لحسن الحظ، في مواجهة البحر، وفي منطقة ممتازة.

وبجانب مصاعب المناخ، تواجهنا أيضاً مصاعب الناس التي لا تنتهي.

فعلى الرغم من أن الناس هم مصدر الفرص الجيدة لنا، إلا أنهم أيضاً مصدر المصاعب الكثيرة التي تواجهنا. فالنصائح والإرشادات الطبية التي نرددها عليهم، تواجه بإهمال في الكثير من الأحيان، وفي أشياء مهمة أيضاً. كما نواجه بمشكلات مثل اعتقاد الناس بأن الأمراض، ليس مصدرها القذارة والاكل غير النظيف مثلاً، بل إنها، في رأيهم، ترتبط بالجن والشياطين واعمال سحرية غريبة.

ولعل هذه الاعتقادات الخاطئة تتسبب بمضاعفات وأخطاء فادحة، خصوصاً في أوقات انتشار أوبئة قاتلة مثل الكوليرا والطاعون.

زد على ذلك، أن السكن في هذه المنطقة سيء جداً. فلا توجد إضاءة، ولا نوافذ في المنازل، وأفنية البيوت مظلمة. وفي أحيان كثيرة، نضطر إلى استخدام المصابيح لفحص المريض داخل بيته، ونحن في عز النهار، علاوة على ذلك فالبيوت تنقصها التهوية.

أما طعام الناس، فهو يرتبط بطريقة معيشتهم. فعندما تقوم بزيارة إلى سوق السمك في مطرح، تصاب بدهشة بسبب مجيء الكوليرا وانتشارها بسرعة، واختفائها بسرعة أيضاً. وتستغرب اعتقاد الناس بأن الكوليرا سببها أكل السمك.

وعلى الرغم من ذلك، لا يوجد نقص في الغذاء. فالأرز والتمور متوافران بكثرة، والأسماك رخيصة جداً، هم في ذلك في مأمن من الجوع.

الامراض من جميع الأنواع موجودة هنا. لكن مرض الملاريا هو الأكثر انتشاراً بين الناس، وغالباً ما نجد أنه انواع عدة، وهو لذلك يسيطر على عملنا الطبي معظم الأحيان. وبجانب ذلك تنتشر الكوليرا، ولكنها ليست من النوع المميت.

وهناك أعداد كبيرة مصابة بالسل. وعادة ما يصاب الناس برعب وهلع من هذا المرض. وهناك ضحايا كثيرة للسل، ولكن الغريب أن المرض لا ينتشر بكثرة.

تنتشر أيضاً، الأمراض الرئوية في فصل الشتاء القصير. ولعل السبب المهم يرجع إلى أن الناس، بسبب تعودهم الحر، تتأثر أجسادهم بأي هواء بارد، فتراهم يصابون بالارتعاش.

إضافة إلى ذلك، فجميع أنواع أمراض العيون منتشرة هنا. ولمواجهة ذلك، فإننا نقوم بعمليات طبية كثيرة، ومن جميع الدرجات، وأحياناً في المنازل. وعلى الرغم من أن الناس يخافون كثيراً من إجراء العمليات، إلا أنهم، مع الوقت، أصبحوا يشعرون باهميتها، ولا سيما إذا عرفوا الطبيب وألفوه جيداً.

عمان في العام ١٨٩٩:

حوار ساخن بين المسيحية واليهودية

في بداية شباط /فبراير ١٨٩٩، كان القس الأميركي جيمس كانتين قد انتهى، لتوه، بعد تفكير طويل، من تحديد منطقة التبشير المقبلة في منطقة الخليج، بعد البحرين.

حينئذ، كان كانتين ومعه صديقه القس المشهورة، صموئيل زويمر، قد انتهى إلى تحديد الدوائر الحمراء على خارطة منطقة الخليج العربي. وكان المقصود بهذه الدوائر مناطق الزيارات المقبلة.

وفي غضون أسابيع قليلة، وجد كانتين نفسه في عمان، للمرة الأولى، لكنها بعكس الخارطة الصغيرة، وجدها قارة مملوءة بالقرى والمدن والنخيل والأشجار.

لم يكن اكتشاف عمان، بالنسبة إلى مبشر اميركي شاب، مسألة سهلة. ولذلك، سيطر القلق والخوف، وأحياناً الذهول، على معظم أيام كانتين في هذه البلاد، التي لا يعرف فيها أحداً.

وقد عجل هذا الارتباك في تعديل خطط القس كانتين وخلط أوراق مهمته. وآثر كانتين الاكتفاء بالمراقبة، وملاحظة المكان، ورصد الناس، وتسجيل بعض الانطباعات، حتى يتمكن من القيام بشيء ما، بعد فترة من الزمن.

وعلى الجانب الآخر، استفاد كانتين من وجود بائع كتب الإرسالية الاميركية، الياس باكوس، الذي جاء معه من البحرين، واستفاد أكثر من حماسته ولغته العربية الممتازة، اللتين جعلتاه يسافر إلى منطقة بعيدة من مسقط، هي صحار.

ولأن الخيارات المطروحة على المبشر كانتين كانت قليلة جداً، لم يستطع أن يقول شيئاً في مسألة رحيل بائع الكتب الياس إلى صحار، فتركه يذهب إلى هناك. أما الشيء الوحيد الذي فعله، فهو تقديم دعواته له بالتوفيق في مهمته، وتركه يروي تجربته بنفسه :

بدأت رحلتي إلى الباطنة في ٧ آذار/مارس ١٨٩٩، بعد تمكني من تخطي الكثير من الصعوبات إلى صحار، بعد ثلاثة ايام، وكان ذلك في مساء يوم الأحد، شاكراً لله عنايته بي. وفي الليلة نفسها، استطعت استئجار أحد البيوت. ومضت ليلتي على خير، ولم يعكر صفوها أي مشكلات تذكر.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً. وبعد إفطار متواضع وسريع، أخذت بعض الكتب المسيحية والأناجيل، وذهبت، في الحال، إلى سوق المدينة.

وفي السوق، وجدت حركة تجارية صاخبة، ومئات البشر من كل مكان، يتدافعون وراء أرزاقهم. أصوات البائعين تختلط بصراخ الحمالين، تتقاطع معها أصوات الحيوانات.

وبعد جولة سريعة في أزقة وشوارع السوق، وقفت في إحدى الزوايا، أبيع ما عندي من أناجيل وكتب.

ولم تكد تمضي لحظات قليلة، حتى جاء إلي يهودي غريب. وفي الواقع، فإنه يوجد في صحار القليل من العائلات اليهودية، وهي العائلات اليهودية الوحيدة الموجودة في عمان، على ما أعتقد.

المهم أن هذا اليهودي بادرني، في الحال، بالسلام والتحيات. وعلى أثر بعض الأحاديث الودية، بدأ اليهودي الحديث معي، وكأنه وقع على كنز ثمين.

سألني :

. ماذا لديك من أخبار عن بيت المقدس؟

أجبت :

. لا توجد لدي أخبار. ولكن ماذا تعرف أنت عن بيت المقدس؟

قال اليهودي :

. لقد سمعت بعض اليهود يتحدثون عن أن المسيح سيأتي قريباً جداً.

أغضبني هذا الكلام، فرددت عليه قائلاً :

. المسيح جاء، أصلاً.

ثم أجابني :

. عندما يأتي المسيح، فإنه سيسير طبقاً لأمر موسى.

قلت له :

. نعم، هذا ما قاله المسيح. ولكن قال أيضاً :أنا لم أجئ إلى هنا لتحطيم القانون، ولكن لتنفيذه.

فقال . اليهودي، في الحال :

. لماذا لم تختن، إذا؟

أجبت :

ـ المسيح علمنا أن نظهر قلوبنا من شيطان هذه الأرض. وماذا يفيد الختان، إذا كانت قلوبنا مملوءة بقذارة هذه الأرض؟

قال اليهودي :

. جيد جداً. أنا أعرف أنه عندما يجيء المسيح، فلن يكون هناك رسول بعده. هل تؤمن بذلك ؟ثم ماذا تقول عن الرسول محمد؟

وأمطرني بالكثير من الأسئلة، وحاولت الإجابة عن أسئلته الفضولية بنية صادقة، ولم أكن متوقعاً شيئاً أكثر من أن هذا اليهودي يحب المناقشة، ويود التحدث مع الاجانب فقط. ثم تركني اليهودي في حالي، وواصلت بيع الكتب، والتحدث مع الناس.

لكن بعد نصف ساعة تقريباً، حدثت مفاجأة، لم أتوقعها إطلاقاً. فبينما كنت أتجول داخل السوق، جاء إلي بعض المسلمين، واشتروا بعض النسخ، وأعطوني نقوداً. ولكنهم قاموا بتمزيقها أمامي وسط ذهولي واندهاشي.

سألت هؤلاء:

. لماذا تفعلون ذلك ؟

قالوا في رد حاسم :

. هذا أقل ما تستحقه، فعقوبتك القتل ووضع سكين في جسدك.

وبعدما تركوني، وجدتهم يجوبون الأزقة والشوارع، ويعلنون بأعلى أصواتهم، أن أي شخص سيشتري كتاباً واحداً من هذا المسيحي، سوف يسجن ويعاقب عقاباً شديداً.

وازدادت، خلال هذه الدقائق الحرجة، مشاعر الخوف والقلق لدي. وأكثر من ذلك، بدت بوادر الاضطراب والغضب على وجوه الناس، وفي حركة السوق. وعندما قررت أنه من الأفضل لي أن أغادر السوق، وأرجع مع كتبي إلى البيت، وهكذا فعلت.

وفي البيت، هدأت من روعي، وحاولت طرد كل مشاعر الخوف التي سيطرت على كياني. بل قررت أنه بدلاً من بقائي في البيت مذعوراً، سيكون من الأفضل الخروج إلى الناس والدخول في مواجهة.

وتركت البيت فعلاً، وذهبت إلى أقرب مقهى فيه أناس كثيرون.

وفي المقهى، تحدثت مع الأهالي بود، وشرحت لهم موقفي، وأخبرتهم بأن كل ما سمعوه كان كذباً من قبل ذلك اليهودي. وأخبرت رواد المقهى بأن اليهود أعداء الحقيقة، وأن القرآن يشهد بذلك. وقلت لهم :

ـ عندما يشهد قرآنكم بذلك، فهل ستشكون فيه، وتؤمنون بما يقوله اليهود؟

قالوا، وقد بدا الاقتناع على وجوههم :

ـ هذا صحيح، وكل ما سمعناه من اليهودي عنك هو مجرد خداع.

وأحسست، بعد هذه الأحاديث في المقهى، بنوع من الطمأنينة، وبكثير من الراحة. لكن لم تمض ساعات حتى واصل اليهودي لعبته القذرة، واستمر الاضطراب بين الناس، وكثرت الأحاديث حولي، كمسيحي، وحول مهمتي التبشيرية.

وهكذا، في اليوم التالي، حزمت أمتعتي وكتبي، ورحلت حفاظاً على سلامتي.

وعند انتهاء رواية بائع الكتب الياس، لما حدث له في صحار، قرر المبشر جيمس كانتين العودة فوراً إلى البحرين. ليس بسبب اليهودي والحوار الساخن مع الياس، ولكن بعد انتشار مرض الطاعون في عمان.

القس ج. بنينجس يبشر، العام ١٩١٨، في القطيف :

عيون وبساتين في كل مكان

في بداية العام ١٩١٨، رافق المبشر القس ج. بنينجس الطبيب بول هاريسون، في رحلة إلى القطيف. كان الهدف من الرحلة طبياً وتبشيرياً، كعادة رحلات الإرسالية الأميركية في منطقة الخليج.

وكتب المبشر عن رحلة القطيف في مجلة الإرسالية قائلاً :

لم أتردد لحظة واحدة في الموافقة على قبول دعوة الدكتور بول هاريسون، لمرافقته في زيارة القطيف، لإجراء بعض الترتيبات فيها، من أجل العمل الطبي للإرسالية الأميركية. بل إنني، في الواقع، شعرت بسعادة عظيمة لهذه الدعوة، التي ستجعلني أرى القطيف الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، للمرة الأولى في حياتي.

وفي صباح أحد أيام شباط /فبراير ١٩١٨ الدافئة، ذهبنا إلى ميناء المنامة في الموعد المحدد، وهو العاشرة صباحاً. وعندما مضى بعض الوقت، أيقنت أن السفينة ستتأخر، كالعادة. فمغادرة هذه السفن في موعدها المحدد يعتبر نوعاً من المعجزات، ولذلك فهي

مشهورة بعدم دقتها إلى درجة أن المسافر عندما يركب فيها، تجده ينتظر ساعات طوالاً وأحياناً أياماً عدة.

ولكن لحسن الحظ، كان هناك استثناء لهذه القاعدة. فلم يمض وقت طويل على وجودنا في السفينة، حتى نشر البحارة الشراع، وأبحرنا في لحظات.

وطول اليوم، راحت السفينة تنطلق ببطء. وعندما أطبق الظلام علينا، لم نكن قد قطعنا أكثر من ١٥ ميلاً، وأصبحنا خارج أفق البحرين بصعوبة.

وعندما أصبح الوقت ظلاماً حالكاً، بالنسبة إلى قبطان السفينة، لم يستطع مواصلة السير، وبالتالي قيادة السفينة، فأعطى أوامره بإلقاء المرساة. وهكذا وجدنا أن موعد النوم قد حان، فوضعنا فرشنا مع بقية المسافرين الأربعة، واستغرقنا في النوم.

وفي الفجر، استيقظنا مبكرين على صياح قائد السفينة :عبد الله. عبد الله. ولكن لم يكن هناك أحد يجيبه. وعند ذلك، صرخ بصوت عال قائلاً :«عبد الله. . قم وصل». وفي الحال، نهض البحار عبد الله ومعه بقية البحارة من نومهم، ثم راحوا يتوضؤون بمياه البحر الباردة، تمهيداً لتأدية الصلاة. وحيث وجدوا مكاناً يكفي لسجودهم، أدوا صلاتهم.

بعد انتهاء الصلاة، تم رفع شراع السفينة. ومرة أخرى، كانت الرياح خفيفة. لكنها كانت أفضل من اليوم السابق، ولذلك، استطعنا الوصول إلى دارين في حوالي الثالثة بعد الظهر.

ولأن وجهتنا الأصلية كانت القطيف، التي تبعد ثلاثة اميال من هنا، كان لزاماً علينا الانتظار لبعض الوقت في دارين. وهنا، وجدنا فترة الانتظار فرصة للذهاب إلى الساحل . خصوصاً بعد الجزر . للسلام على الشيخ جاسم، شيخ دارين. وقد استقبلنا الشيخ جاسم بودية، وجلسنا معه بعض الوقت. والشيخ جاسم هو نفسه الذي رفض السماح للدكتور هاريسون بالدخول إلى دارين، قبل سنوات، عندما طلب ذلك للمرة الأولى، لكنه استضافهما . الدكتور هاريسون وزوجته . لمدة ستة أسابيع في الصيف الماضي، حين استطاع هاريسون معالجة الكثير من الغواصين، الذين يعملون في صيد اللؤلؤ.

وبعد نصف ساعة تقريباً، عدنا مرة أخرى إلى السفينة، التي أبحرت حتى وصلت إلى القطيف، في خلال ساعة واحدة، كانت الأحوال الجوية خلالها مملوءة بنسمات منعشة جداً.

وقد كانت مياه البحر المواجهة للقطيف قليلة العمق، وكان الجزر في الساحل يصل، أحياناً، إلى مسافة تقدر بربع ميل في بعض الأماكن. ولذلك، فإن القوارب، عند الجزر المرتفع، كانت لا تستطيع الوصول إلى أقرب من مئة قدم.

وبينما غامر الدكتور هاريسون بخوض الساحل، فضلت أنا انتظار قارب صغير ليأخذني إلى اليابسة.

ولكن بعد نصف ساعة تقريباً، أصبحت المسافة الباقية من دون مياه، ولذلك كان علي نزع حذائي وجواربي والمشي على الاقدام. وقد وجدت المشي على هذه الأرضية ليس مسالة صعبة، كما توقعت، ولكن عندما تسحب قدمك من الارض الرطبة، وتمشي بها إلى ارض الساحل الرملية، فتلك حكاية أخرى.

في أي حال، وصلنا إلى القطيف عند غروب الشمس تقريباً. وقدم الأمير ابن جلوي ترحيباً ودياً حاراً للدكتور هاريسون ولي أيضاً، على الرغم من أنه عرف أنني قس مسيحي.

وأكثر من الترحيب، قام الأمير بمتابعة ترتيبات سكننا هنا، في فترة قصيرة جداً. وبعد انصراف الأمير، قررنا أخذ قسط من الراحة. لكننا أصبنا بالإحباط بعض الشيء، بالنسبة إلى السكن. فقد كان مدخل البيت قذراً، كما أن أقساماً كبيرة منه كانت عبارة عن خرائب، ترجع إلى أيام غابرة، وكانت بعض الجدران السليمة تشير إلى أن هذا المبنى له قصص طويلة تستحق أن تروى.

وعلى الرغم من هذا الاحباط، وجدنا أن القطيف منطقة جميلة، عندما قمنا بأولى الجولات في شوارعها وأحيائها وضواحيها. فهذه المنطقة تدين بوجودها إلى العدد الضخم من العيون المنتشرة في كل مكان، فهي تبلغ، كما يقول البعض، أكثر من مئتي عين، تروي بساتين النخيل الموجودة في كل مكان. وبعض هذه العيون كبيرة الحجم حتى إنها تصب في أربعين جدولاً كبيراً، طول الوقت. ولذلك فإن هذه العيون تروي جميع الأراضي المحتاجة إلى المياه.

وبساتين النخيل تنتشر هنا على طول الشاطئ (١٥ ميلاً تقريباً). وتتناثر ما بين البساتين قرى متنوعة الحجوم. وبسبب هذه الوفرة من النخيل، فقد كانت (المنطقة) حتى وقت قريب، جنة عدن، بالنسبة إلى البدو الجياع في الصحراء، الذين كانوا لا يتعبون أبداً من عمليات النهب والسلب في أراضيها، قبل مجيء ابن سعود إلى المنطقة. وفي بعض الأوقات، وأثناء موسم التمور خصوصاً، كان البدو يحاصرون بعض القرى لمدة شهر تقريباً حصاراً تاماً، ويقومون (البدو) خلال فترة الحصار بجني محصول التمور بأنفسهم، ويهربون بعد الانتهاء من ذلك. وقد عرفنا الكثير من هذه القصص من الجرحى، الذين يصابون أثناء غارات البدو عليهم، ويأتون إلى مستشفى البحرين للعلاج.

ولكن العقوبة القاسية التي فرضها ابن سعود، عند بداية حكمه للمنطقة، جعلت مسألة غارات النهب والسلب وحصار القرى، مجازفة غير مأمونة، حتى بالنسبة إلى البدو، المشهورين بالقوة والذكاء. بل إن هذه الغارات توقفت تماماً بفضل ابن سعود.

وبسبب ذلك، استطاع أهالي القطيف التنفس، الآن، بحرية أكثر، بل إن الكثيرين منهم أصبحوا يبنون بيوتهم خارج سورها العالي المشهور، ذي البوابات الثلاث.

وفي إحدى جولاتنا، رأينا أن هناك مناظر جميلة جداً، داخل بساتين النخيل، حيث يمكن مشاهدة جداول المياه الجارية من ينابيع قريبة. وفي وسط النخيل تنمو أشجار فاكهة متنوعة، وخضراوات. ومقابل كل عين كبيرة يوجد، عادة، مسجد صغير، وهو دلالة على قدسية المكان وضرورة الماء للحياة.

وفي اليوم الثالث من إقامتنا، ذهبنا لزيارة جزيرة تاروت، التي تبعد حوالي ميلين عن شمال شرق القطيف. وتتصل، عند انخفاض الماء، باليابسة من طريق مخاضة، يبلغ طولها نصف ميل، شمال كوت القطيف. لذلك، كان من الممكن، بالنسبة إلينا، الذهاب إليها مستخدمين الحمير، عند الجزر.

في تاروت، أعجبنا إعجاباً خاصاً بقلعة ضخمة مدمرة، تقع قرب ينبوع كبير. وهذه القلعة، التي بنيت قبل مئات السنين، لا تستخدم منذ زمن، ولكن برجها العالي، الذي صعدنا إليه، يمكن من مشاهدة مناظر جذابة للبساتين المحيطة وللقطيف عامة.

وبجانب الجولات، قام الدكتور هاريسون بمعالجة الكثير من المرضى، الذين احتشدوا حول بيتنا لأوقات طويلة. لكن بقاءنا أطول من الفترة المقررة، وهي عشرة أيام، لم يكن ممكناً لأسباب كثيرة.

وهكذا غادرنا القطيف، في الساعة العاشرة مساء، على متن مركب، كان يحمل رزماً من سعف النخيل. وعندما جلسنا في المركب، واجهتنا بعض الصعوبات المضحكة أحياناً.

في البداية، وجدنا أن العشرين مسافراً في المركب، قد احتلوا جميع الأماكن، ولذلك، كان علينا وضع فرشنا فوق رزم سعف النخيل، لننام حتى الصباح. ولكن الذي حدث، أننا قضينا ليلة متعبة جداً، بسبب أغصان السعف، التي اخترقت فرشنا الرقيقة وبدت كأنها أشواك في ظهورنا طول الليل.

وفي الصباح، كانت الرياح مواتية. ولذلك، مضى المركب بسرعة، وكنا نأمل في الوصول إلى البحرين عند غروب الشمس على الأقل. ولكن الرياح خفت فجأة. وهكذا قضينا الليل، مرة أخرى، فوق السعف الشائكة، وتحت زخات المطر، التي تساقطت مرتين خلا الليل. لكن، عند الفجر، صارت السماء صافية والرياح مواتية. لذلك، تمكنا من الوصول إلى شاطئ البحرين عند الساعة العاشرة صباحاً تقريباً.

سوق الخميس في البحرين، في العام ١٩٠٨:

التجارة تفسد مهمة المبشرين

كثيراً ما كان أعضاء الإرسالية الأميركية في البحرين، يسمعون من مرضاهم في المستشفى في المنامة، عن سوق الخميس المشهور ومسجدها التاريخي.

كان ذلك يثير الفضول لدى المبشرين والأطباء الأميركيين، في كل مرة يستمعون فيها إلى أحاديث المرضى حول هذا المكان.

وفي نهاية كانون الثاني /يناير من العام ١٩٠٨، ازداد الفضول عند احد المبشرين، وهو د. دياكسترا، وفي الوقت نفسه أدرجت إدارة الإرسالية الأميركية في البحرين «سوق الخميس» على جداول زيارات التبشير.

ذهب دياكسترا، فعلاً، ومعه بعض بائعي الكتب المسيحية إلى سوق الخميس، في أحد أيام الخميس مشياً على الاقدام. وعند وصولهم إلى هناك، وجدوا المكان عبارة عن تل رملي، يرتفع فوق بساتين من النخيل وحقول من الأعشاب. وفي وسط هذا السهل، توجد بقايا مسجد قديم.

وفي المكان نفسه، وجدوا مئذنتين مهيبتين، تدلان على المكان من بعد أميال، وتقفان مثل حارسين فوق أكوام من الحجارة، وتدلان على انهما صرحان مهيبان. وعلى الرغم من أنهما تفتقدان مقصورة المؤذن، إلا أنهما تحتفظان ببراعة تصميمهما من الخارج، كما أن المسجد لا يزال يحتفظ بشكله الخارجي جيداً. وهناك مدخل ضيق في الأسفل، يؤدي إلى سلم ملتو، ينتهي بالزائر إلى فتحه المنارة.

وفي أسفل المنارتين، وجد المبشرون مسجد الخميس، ولا حظوا براعة بنائه وتصميمه، إضافة إلى عارضة خشبية في سقف مائل، نقشت عليها نقوش دينية. كما أن جدران المسجد، السليمة تماماً، مزخرفة ببعض الزخارف الإسلامية القديمة، وعلى الرغم من صمود الجدران، إلا أن معظم المبنى متهدم، بفعل تأثيرات الزمن، لكنه يمثل مجد الماضي العريق وهالته.

وأكثر من ذلك، وجد دياكسترا أشياء أخرى كثيرة في أثناء تجوله مع بائعي الكتب.

فمنذ سنوات طويلة، سمع دياكسترا أن سكان جزر البحرين، كانوا يتجمعون في المسجد، كل يوم خميس، لحضور الصلوات والقراءات الدينية، التي يعقدها المسلمون في ذلك اليوم، الذي يعدونه يوم راحة. وطول هذا اليوم، يقضي مسلمو البحرين وقتهم في النحيب على أقربائهم الميتين، والدعوات لهم، والاستماع إلى قراءة القرآن والخطب الدينية.

وبما أن المسجد صار مكاناً لتجمع الناس، كل خميس، فإن تجار البحرين وجدوا أن هذا المكان، وهذا اليوم، يعطيانهم فرصة ممتازة للبيع والشراء وتبادل البضائع. ولذلك بدأوا، شيئاً فشيئاً، في خلق سوق في هذا المكان. ومع الوقت، أحضروا معهم الحيوانات والمنتجات الزراعية، وجرى تبادل البضائع على قدم وساق، واستغل التجار فرصة وجود مئات الناس في المكان، ونجحوا، في النهاية في إقامة سوق شعبية كبيرة.

وبسبب عدم وجود النقود، في الماضي، كانت السوق وناسها يتعاملون بالمقايضة، فيجري مثلاً تبادل حمار بكيس كبير من الأرز، أو ما شابه ذلك.

وهكذا وجد دياكسترا أن المكان قد تغير. فقد تراجع الجانب الديني كثيراُ إلى أن وصل الأمر إلى سوق من دون شعائر دينية، بخلاف ما كان عليه الأمر في السابق.

ولعل أكثر ما لفت المبشر الأميركي ورفاقه بائعي الكتب، في أثناء جولاتهم القصيرة في السوق، هو الصخب والضجيج، اللذان لا ينتهيان. حتى إن أذان المؤذن للصلاة يكاد لا يسمع، وسط الأصوات المنبعثة من السوق.

شارون توماس طبيب مقدام في المنامة، العام ١٩٠١ :

عيادة تعاني الإحباط والتعاويذ والأقاويل

في نهاية العام ١٩٠٠، وجد الطبيب والمبشر الأميركي، شارون توماس نفسه أمام أول امتحان حقيقي له بعد مغادرته الإرسالية الاميركية في نيويورك في أميركا.

فبعد عمل طبي وتبشيري شاق، في البصرة في العراق، احتاجت الإرسالية الأميركية إلى طبيب ومبشر، في الوقت نفسه، للذهاب إلى البحرين.

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة والإغراءات، التي قدمتها إدارة الإرسالية، إلا أنها فشلت في الحصول على هذا «الطبيب المقدام»، الذي يضحي بالعراق من أجل البحرين. لكن شارون توماس قبل المهمة والمغامرة، وذهب إلى المنامة بحماسة شديدة. وشاهد توماس هذه الإحباطات بنفسه، وكتب عنها في نهاية العام ١٩٠١ قائلاً:

هناك الكثير من المسيحيين الذين يقومون بأعمال عظيمة لله وللمسيح، ولكنهم يخذلوننا، مع الأسف، عندما يطلب منهم القيام ببعض الواجبات الصعبة، بل يرفضون ترك أصدقائهم، لبعض الوقت.

وفي أحد الأيام، سعدنا كثيراً عندما علمنا بأن أحد الأطباء، سيأتي إلى البحرين من بغداد. جاء الطبيب، فعلاً، في فصل الربيع، وعمل معنا من دون حماسة، لبعض الوقت، ولكن عندما جاء الصيف، بحرّه اللاهب وإزعاجه، غيّر هذا الرجل رأيه، وقال لنا :«إن الله لا يحتاج إليّ هنا في البحرين». وبسرعة، رجع مرة أخرى إلى أصدقائه وعمله في بغداد.

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة لثنيه عن هذا القرار، وحتى محاولات زيادة راتبه، فإنه لم يوافق على البقاء معنا.

وألى جانب هذه الإحباطات، فقد كنا نعالج في عيادة المنامة مئات المرضى، ونجري أيضاً الكثير من العمليات تحت تأثير المخدر. وفي كل مرة، كنا نواجه مشكلة لا تخطر على بال احد. والمشكلة، على الرغم من بساطتها، إلا أنها تعقد من مسألة كتابة التقارير الطبية لإدارة الإرسالية.

ففي كل مرة نحصي عدد المرضى بالأرقام، نكتشف أن الذين عالجناهم هم أكثر من ذلك. والسبب أن المريض الواحد كان يحمل أمراضاً عدة في وقت واحد. ففي كثير من الأحيان، كان المريض يأتي إلينا وهو يحتاج إلى قلع إحدى أسنانه، وتضميد جرح في جسمه، ومعالجة إحدى عينيه، ويحتاج إلى جانب ذلك كله، إلى منشط، ولكنه يسجل، في النهاية، على أنه مريض واحد.

ولدينا أعداد كبيرة من المرضى في البحرين، يعانون مشكلات في آذانهم ولا سيما غواصي اللؤلؤ. وهي مشكلة يعانيها معظم أهالي منطقة الخليج العاملين في الغوص. ويأتي هؤلاء إلينا، وآذانهم مملوءة بالشحم، الذي يضعونه أثناء عملية الغوص. طبعاً، كان علينا تنظيف آذانهم من كل شيء، حتى من الملح الموجود فيها بكثرة بسبب الغوص. وبعد ذلك، نقوم بتشخيص حالاتهم قبل البدء بعلاجهم.

وكثيراً ما كنا نواجه المشكلات مع المرضى أنفسهم من الغواصين. ففي الأيام التالية، يأتون إلينا بأمراض جديدة. فأحياناً، يخبرنا أحد المرضى بأن إحدى أسنانه تؤلمه. وعندما نقوم بالمعاينة، يخبرنا المريض بأنه ذهب إلى أحد «الملالي» (رجال الدين) الذي كتب له بعض التعاويذ في ورقة، وأمره بلفها ووضعها داخل أذنه. وعندما يأتي المريض إلينا، فإن تلك الورقة تكون قد انزلقت، مع الوقت، إلى داخل الأذن، فلا نستطيع تحريكها أو انتزاعها.

وبعد مجهود شاق، استطعت انتزاع ورقة التعاويذ من أذن المريض، واقتلاع الضرس الذي يؤلمه.

إلى جانب هذه الغرائب، فإن الإحباطات لا تنتهي. فعلى الرغم من أن عملنا الطبي قد تأسس في البحرين منذ سنوات عدة، إلا أنه لا يوجد لدينا، حتى الآن، طبيب مستعد للقيام بعمليات التوليد خارج المستشفى. ولعل سبب ذلك يرجع إلى قلة الاطباء المتمكنين من اللغة العربية، التي تجعلهم يتفاهمون مع السكان بلهجتهم المحلية.

وحتى موضوع مبنى المستشفى الخاص بالإرسالية في المنامة، الذين يبنى هذه الأيام، لم يخل أيضاً من الإحباطات والأقاويل.

فأهالي البحرين لا يستطيعون، حتى الآن، تصديق أن المبنى الجديد، والذي سيكون أفضل كثيراً من مقر الإرسالية السابق، من دون شك، سيخصص لمرضى البحرين وعرب الخليج، وليس لسكن أعضاء الإرسالية.

وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة، التي يبذلها أعضاء الإرسالية في البحرين، لتغيير هذا الاعتقاد السائد، إلا أن الكثير من الأهالي مقتنعون تماماً بأن أطباء الإرسالية سيسكنون في المبنى الجديد، وسيتركون باقي الغرف، التي لا يحتاجون إليها للمرضى.

من المؤكد أن الطبيب شارون توماس، قد خبأ الكثير من الإحباطات الأخرى، حتى لا يصاب أعضاء الإرسالية الأميركية، القدامى والجدد، بخيبة أكبر من تلك التي كانوا يشعرون بها في عملهم التبشيري في المنطقة.

نائب ملك بريطانيا في الهند يزور الكويت، العام ١٩١٤ :

أقواس النصر ترحب باللورد الأرستقراطي

بدلاً من التقارير الطبية والإدارية المملة، التي اعتاد الطبيب الأميركي ستانلي ميلري تقديمها، دورياً، إلى الإرسالية الأميركية في البحرين، عن وضع البعثة في الكويت، وجد ستانلي زيارة نائب ملك بريطانيا في الهند، في نهاية كانون الثاني/ يناير العام ١٩١٤ إلى الكويت، فرصة عظيمة لكسر روتين التقارير المملة، والكتابة في موضوعات مختلفة، تبعده عن جو العمل، للمرة الأولى منذ إقامته بالكويت.

وفعلاً، كان موضوع زيارة نائب الملك إلى الكويت مسألة تستحق أن تروى لأعضاء الإرسالية الأميركية في الخليج وأميركا. ولذلك، لم يتردد ميلري في وصف هذه الزيارة الممتعة، وكتب عنها قائلاً :

كانت أشعة الشمس تنشر ضوءها في السماء الزرقاء الصافية، في صباح يوم ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩١٤، بينما كانت مياه البحر الزرقاء تتماوج بلطف في الخليج، وتعانق النسمات القليلة.

وفي هذا اليوم الشتوي الجميل والدافئ، كان جميع الكويتيين تواقين جداً إلى هذه الزيارة. فقد كان ساحل مدينة الكويت غاصاً بتجمعات الناس، من الرجال والنساء والأطفال، ومن جميع طبقات المجتمع. وكانوا جميعاً يترقبون بشوق وصول الباخرة العظيمة، التي ستحضر إلى الكويت، للمرة الأولى في التاريخ، نائب ملك بريطانيا جورج الخامس في الهند، اللورد هارد نغني.

وفي حوالى الساعة العاشرة صباحاً، دخلت الباخرة الملكية ساحل الكويت، ورست في الميناء. وفي الحال، قامت السفنية الملكية البريطاينة المرافقة، دالهاوسي، التي وصلت إلى الكويت قبل يوم واحد لاستقبال الباخرة، قامت بإطلاق ٣١ طلقة مدفعية، تحية للباخرة.

وبعد دقائق، تم الرد على هذه التحية، ولكن بشكل متقطع من الميناء، بواسطة مدافع نارية عتيقة، تابعة لشيخ الكويت، مبارك الصباح. ففي البداية، أطلقت ثلاث طلقات متتالية، ثم خمدت المدافع لبضع دقائق، كان المطلقون خلالها يحشون المدافع، وبعدها أطلقوا ثلاث طلقات أخرى.

في الواقع، إن طلقات رجال المدفعية، لم تكن تعبر سوى عن عدم الاستعداد الكافي. فالمطلقون لم يكونوا أكثر من رجل وولد صغير، كانا يقفزان بسرعة من مكانهما فور وضعهما الفتيل الناري، وذلك لأنهما يعتبران إطلاق المدفع عملاً غير مأمون العواقب.

طبعاً، هم معذرون في ذلك. فهذه المدافع القديمة كثيراً ما كانت تقتل بعض الناس عند إطلاقها، وأحياناً، تقتل المطلقين أنفسهم. ولكن الطلقات الست لم تتسبب والحمد لله، بوقوع أي حادث مؤسف.

وإلى جانب الباخرة الملكية والسفينة دالهاوسي، كان الشيخ مبارك واقفاً في يخته، مبتهجاً برايات السفن البريطانية المرافقة للباخرة، التي كان بعضها يتنقل هنا وهناك في البحر.

وعلى الساحل، كانت الصواري على مقر الوكالة السياسية البريطانية وقصر الشيخ مملوءة بالأعلام، بينما أقيم في عدد من مناطق مدينة الكويت مجموعة من أقواس النصر.

وفي اليوم الأول من زيارته، لم يقم نائب الملك بعمل أي شيء سوى استقبال الشيخ جابر، الولد الأكبر للحاكم، الذي قام بزيارة ترحيبية له. لكن عند العصر، تغير البرنامج. فقد قام الكولونيل دبليو غيري، الوكيل السياسي في الكويت، بالترحيب باللورد عند نزوله إلى الشاطئ، وأخذ في جولة غرب مدينة الكويت.

بدأت المراسم الرسمية للزيارة صباح يوم الأثنين، عندما قام الشيخ جابر بزيارة اللورد هارد نغني، ورافق الشيخ أحد شيوخ البحرين، الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة، الذي جاء ليمثل والده الشيخ عيسى بن علي، حاكم البحرين.

وخلال الزيارة، تم منح الشيخ جابر رتبة من نائب الملك، بدرجة قائد نجمة الهند، ثم قلد اللورد الشيخ عبد الله وسام وصيف أمبراطور الهند. وفي الاحتفال، قام نائب الملك بإلقاء كلمة قصيرة، مرحبة ومهنئة.

وفي الساعة الثانية والنصف ظهراً، قام اللورد برد الزيارة، وذهب إلى الشيخ في قصره. وهناك، تم استقباله وأدخله الشيخ في مجلس القصر، بينما تبعهما العرب في الموكب.

استغرقت الزيارة الرسمية نصف ساعة، تم خلالها تناول القهوة، حسب التقاليد العربية. ثم قام أفراد حاشية الملك بتغيير ملابسهم، التي كانوا يرتدونها في القصر، وذهبوا في رحلة قصيرة إلى أسواق المدينة. كما قامت سيارة حاكم الكويت والقوافل التابعة باصطحاب المجموعات المرافقة لنائب الملك، الذي استمتع بقيادة السيارة لبعض الوقت في الطريق.

وفي اليوم نفسه، أتيحت لي ولزوجتي فرصة عظيمة لمقابلة اللورد هارد نغني.

ومثـل معظـم الارسـتقراطيين الحقيقيـين، كـان اللـورد، عنـدما اسـتقبلنا، هادئـاً جـداً وصريحاً. وكان من النوع الذي لا يعطيك انطباعاً بالتعالي أو الترفع على الشخص الذي يقابله، كما أنه يظهر لك اهتمامه ومعرفته بكثير من أمورنا.

وخلال اللقاء، سألنا اللورد عن وضعنا في الكويت. وتحدث عن أيمانه العميق بالعمل الطبي في الشرق. وأخبرنا أن زوجته الليدي هارد نغني مهتمة جداً بتأسيس كلية للطب خاصة بالنساء، في الهند. وأضاف اللورد أنه يتطلع إلى مشاهدة مستشفى الإرسالية الأميركية، في اليوم التالي.

وفي صباح يوم الثلاثاء، قام اللورد بزيارة الناحية الغربية لساحل الخليج، بواسطة السيارة، وعاين مرفأ الكويت، الذي يزود السفن بالفحم.

وفي طريق عودته من الميناء، قام بزيارة مستشفى الإرسالية الأميركية.

كانت الزيارة فرصة عظيمة لنا، لنستطيع أن نطلع اللورد على كل شيء. وحرصنا على أن يرى غرفة العمليات.

وهناك سأل اللورد عما إذا كانت التجهيزات والمعدات، الموجودة في الغرفة، ليست أميركية. وعندما قلت له :إنها أميركية، رد عليّ بقوله :لقد كنت متأكداً من ذلك، فهي بسيطة جداً، ولكنها ممتازة في الوقت نفسه. وعند نهاية الزيارة، كتب اللورد في دفتر الزيارات الخاص بالمستشفى:

«أتمنى لهذا المشروع حظاً موفقاً، وأدعوا لكم بالتوفيق».

وبعد مغادرة اللورد المستشفى، عدنا مشياً إلى البيت. وفي الطريق، قام الطبيب الخاص، المرافق للورد، جي. روبرتس، بوضع مظروف صغير في يدي، قائلاً: هذه منحة بسيطة من صاحب الفخامة.

وقد وجدت، بعد ذلك، أن المظروف كان يحتوي على شيك بمبلغ ضخم، هو ٣٠٠ روبية هندية. كانت، في الواقع، هدية عظيمة في وقت صعب.

واصطحبنا اللورد معنا إلى بيت الإرسالية. ومع أنه لم يبق مدة طويلة معنا، لكنه وجد هذه المناسبة فرصة عظيمة لطرح العديد من الأسئلة، وليبدي إعجابه بالبيت وهندسته.

وبعد رحيل نائب ملك بريطانيا في الهند من بيتنا، بعدة ساعات، أبحرت الباخرة الملكية من الكويت، عند الساعة الثانية والنصف ظهراً، متجهة إلى البصرة، منهية بذلك زيارة اللورد هارد نغني الرسمية إلى الكويت.

وعلى الرغم من استمتاع الطبيب ستانلي ميلري بكتابة تفاصيل هذه الرحلة، إلا أنه كان عليه أن يعود مرة أخرى إلى كتابة التقارير الطبية والإدارية المملة عن الإرسالية الأميركية في الكويت، ريثما يجد لورداً أرستقراطياً آخر، يكتب عنه في المستقبل.

المبشر جيمس مويرديك في عمان، العام ١٩٠٤:

غرائب وعجائب تواجه المبشرين

لم يكن لدى المبشر وعضو الإرسالية الأميركية، جيمس مويرديك، وقت ليضيعه في بداية العام ١٩٠٤.

ففي تلك الفترة، كانت مهام التبشير لدى الإرسالية كثيرة، والمناطق والمدن الواجب التبشير فيها في الخليج، لا تعد ولا تحصى. والأهم أن مويرديك كان مشتعلاً بالحماسة، وفي ظنه أن التبشير لا يأخذ سوى أسابيع قليلة.

وكانت ظنون مويرديك، إلى جانب الحماسة، تكفي للقيام بجولات تبشيرية في عمان، مع بداية شتاء العام ١٩٠٤، وقد كتب عنها، في مجلة الإرسالية الأميركية، يقول :

حملت، معي بائع الكتب، الصناديق المملوءة بالكتب والكراريس المسيحية. وقد انتظرت طويلاً هذه الرحلة، التي تأخرت لأسابيع، بسبب القتال الدائر داخل المدن العمانية بين بعض القبائل، وبسبب وصول أخبار مؤكدة عن انتشار مرض الكوليرا اللعين، في بعض المدن التي كنا ننوي زيارتها.

في البداية، ساعدت المقابلة التي قام بها بائع الكتب لحاكم مسقط، ليس على إقامة صداقة حميمة معه فقط، بل على مساعدة جنوده وحراسة لنا على السفر إلى أي قرية أو مدينة نريدها.

ويعد السفر سهلاً، خصوصاً في المنطقة الواقعة قرب الساحل الشمالي لمسقط. وباستثناءات قليلة، لم نجد معاداة نحو المسيحيين، الذين يزورون المناطق.

ولكن حدث، في أثناء زيارتنا إحدى القرى هناك، موقف جعلنا لا نطيل الإقامة في القرية لأكثر من بضع ساعات. إذ لدى وصولنا، اتحد الأهالي، وخرجوا لملاقاتنا، ورفضوا رفضاً قاطعاً دخولنا، اصلاً، ومنعوا الجميع من أن يبادروا إلى استضافتنا، طبعاً.

على عكس هذه القرية، حدث لنا خلاف ذلك في قرية أخرى. فعند وصولنا إليها، وجدنا، على غير المتوقع تماماً، معظم الاهالي فرحين بوصولنا، وسعداء باستقبال هؤلاء الأجانب، الذين يلبسون ملابس غريبة. لكنني سرعان ما أدركت أن أحد الأسباب المهمة لهذا الترحيب، يرجع إلى أن الناس، هنا، يتوقعون أن نعطيهم بعض الهدايا، أو أن يحصلوا على بعض الأشياء الغريبة، وهذا ما لم يحدث، طبعاً.

وأكثر من ذلك، أصبت بدهشة عظيمة، عندما وجدت الناس عنها غير مبالين إطلاقاً بما نقوم به من تبشير ووعظ وبيع كتب. بل لم نجد معارضة حقيقية للمناقشات والأحاديث الدينية، التي رحنا نجريها في سوق القرية.

طبعاً، طاب لي المقام في هذه القرية. أما بائع الكتب المرافق، فقد وجد الفرصة سانحة للذهاب إلى قرية قريبة منها، لكنه عاد منها بسرعة، خائباً. فقد وجد معظم الأهالي شديدي التعصب، إذ رفضوا كل ما حاول القيام به من أعمال تبشيرية.

وفي مدينة صور الساحلية المشهورة، حدثت لنا غرائب أخرى، لم تكن على البال.

فبعد رياح عنيفة واجهتنا في أثناء سفرنا إليها، بواسطة أحد القوارب، واجهتنا رياح أخرى، ولكن من نوع أخر.

ففي الأيام الأولى، كنا نخرج إلى السوق، ونقف في ركن منه، ونقوم ببيع الكتب. وعندما يتجمع الناس، نقرأ عليهم بعض المقاطع من الإنجيل، ونقوم بملاحظة ردود فعلهم. وقد خرجنا، بعد يوم متعب، بملاحظة اعتقدنا أنها صحيحة، وهي أن الاهالي بدوا مهتمين جداً بما نقوله، بل مصدقين لكلام الإنجيل.

ولكن، تبين لنا، في ما بعد، أن هذا الاعتقاد خاطئ، إذ كان الناس أنفسهم يأتون إلينا في اليوم التالي، ولا يظهرون أي تجاوب مع ما نقوله، بل يسألوننا، أحياناً، أسئلة جعلتنا نشك في أنهم يفهمون ما نتحدث عنه، على الرغم من أن الذي يلقي المواعظ، هو من أصل عربي، ويتحدث اللغة العربية بطلاقة.

وأكثر الأمور غرابة، حدث لنا في صور، عندما جاء إلينا رجل عماني، كان يبدو أنه يعرف القراءة والكتابة، وراح يتحدث معنا طويلاً عن المسيحية. لكنه بعد يوم واحد، لحق ببائع الكتب، وراح يوبخه، لأنه يقوم بهذا العمل السيء، ألا وهو بيع الكتب.

ومن المؤكد أن المبشر جيمس ورديك، بعد هذه الرحلات التبشيرية، التي واجهتها غرائب كثيرة، قلّت حماسته للتبشير، وصار مقتنعاً بأن مهمته لا تحتاج إلى أسابيع فقط، بل إلى قرون، حتى تستطيع تحقيق نجاح ضئيل.

أليزابيث كانتين تكتب عن عمان في صيف العام ١٩١٠ :

مستعمرة البؤس الحزينة

بجانب الأعمال الطبية الشاقة، التي اضطرت الإرسالية الأميركية إلى القيام بها في مناطق الخليج والجزيرة العربية، حاولت أيضاً تحدي الأمراض المهلكة والمعدية في المنطقة، على الرغم من الإمكانات المحدودة، وانشغال كثير من أعضاء الإرسالية بالتبشير.

ففي صيف العام ١٩١٠، روت المبشرة أليزابيث كانتين إحدى التجارب الصعبة التي واجهت الإرسالية الأميركية في مسقط، فكتبت :

كما هو معروف، بالنسبة إلى الكثيرين، فإن مرض الجذام منتشر في بعض مناطق الخليج والجزيرة العربية، التي تعمل فيها الإرسالية. ومن بين المجذومين البائسين امرأة

عمانية لافتة للنظر، تعيش في منزل والدتها، وتتردد دائماً إلى الإرسالية، ومنها عرفت الكثير من الأشياء عن مستعمرة المجذومين الصغيرة في مسقط.

وفي أحد الأيام، قررت القيام بجولة في تلك المستعمرة، لمعرفة أحوال هؤلاء البؤساء ومعيشتهم وسكنهم. وهكذا غادرت مبنى الإرسالية، في صباح أحد الأيام، ومضيت مع بعض الأصدقاء، وسرنا نحو ١٥ دقيقة تقريباً، عبرنا خلالها الشوارع الضيقة والأزقة. وكان يمكننا، بعدها، رؤية تلك المستعمرة البائسة.

وبينما كنا نقترب من المستعمرة، قابلنا رجلاً كبيراً في السن، أوقفنا وألح علينا في الرجوع إلى الخلف، قائلاً بغضب إنه ليس من المستحسن للأصحاء، أمثالنا، التوجه إلى هذا المكان. وأضاف :«لماذا لا تذهبون إلى حيث يوجد الهواء النقي؟». ثم هز رأسه، عندما رآنا نتجه قدماً إلى المستعمرة.

المكان الذي يعيش فيه المجذومون قذر وبائس، ويصعب على الوصف. وبمقارنته بأماكن قريبة، فإنك ستجد أن في إمكانك أن ترى الجبل القريب، وتشاهد من أعلاه منظراً جميلاً لقرية تحاصرها أشجار النخيل، ويقابلها البحر.

وكان الوقت، عند وصولنا، غروباً تقريباً، حيث الشارع المؤدي إلى المدن الأخرى من مسقط، يسلكه الكثير من الناس عائدين إلى مدنهم وقراهم. وكان عدد كبير من المجذومين يقفون على جانب الشارع، على أمل الحصول على أي شيء من المارة والمسافرين.

وقد كانت هيئات الناس، الذين شاهدناهم، تثير الأسى والحزن معاً. ففي الشارع نفسه، كان يقف رجل اعمى، يحمل سلة خاوية، وأب مجذوم يحمل طفلته الصغيرة، وأم مسكينة مصابة بالجذام، وجميع أصابعها متآكلة، وكانت تحاول حمل طفليها على راحة يديها. . . ومناظر أخرى تدمي القلب.

وعند دخولنا مساكن المجذومين، رحنا نتحدث مع بعضهم، وعرفت أنهم يحصلون على إعانة، يبلغ معدلها تسع قطع نقدية نحاسية في اليوم، تعادل سنتاً ونصف السنت بالعملة الأميركية.

ولئن كانت هذا النقود تكفي لتحفظهم من المجاعة، فإنها لا تكفي إلا لبعض حاجات الحياة لديهم. وبسبب هذه المعاناة، تجد هؤلاء الناس يتشاجرون ويتعاركون على أي ملك عام.

ومن دون الحديث عن الفتاة زهرة، يبدو الحديث عن المجذومين في مسقط ناقصاً، وتبدو أي جولة في مساكن المجذومين بلا معنى.

فالجميع يعرف أن زهرة فتاة طيبة جداً، ولطيفة، وودودة. وبما أن معظم المجذومين هم من الطبقة الفقيرة، فإن زهرة ايضاً جاءت من ذلك الوسط، حيث تركت امها، وجاءت لتعيش مع هؤلاء التعساء والبائسين.

بدات قصة زهرة منذ خمس سنوات تقريباً، عندما جاءت إلى مقر الإرسالية بمسقط للمعالجة الطبية، عند ظهور مرض الجذام في جسدها للمرة الأولى. ووقتها، لم يكن المرض منتشراً بعد، ولكن بعض الناس أصيب به فخاف الكثيرون منه. لذلك، قام أهالي المنطقة التي تسكن بها زهرة بتهديدها وكتابة العرائض لإخراجها من المنطقة وإرسالها إلى مستعمرة المجذومين المنشأة حديثاً.

طبعاً، حاولت زهرة تحدي هؤلاء، وقاومت كل ضغوطهم، عبر مواظبتها على أخذ العلاج في مستشفى الإرسالية لمدة عامين.

لكن عندما ازداد المرض في جسدها، وأمست الأدوية غير نافعة، ازداد الرعب عند أهالي المنطقة، فاضطرت، بأمر من الحكومة المحلية، إلى العيش في مستعمرة المجذومين، ولم تستطع مغادرتها حتى الآن، إلا عندما سمح لها بزيارة أمها مرتين في الأسبوع.

المبشر الأميركي ج. بنينجس يكتب ذكريات عن الكويت

في العام ١٩١٤:

الكويت. . . مدينة الأسوار الصغيرة

بعد المساهمة الكبيرة والفاعلة، التي قام بها الطبيب والمبشر الأميركي ج. بنينجس في تاسيس العيادة الطبية، التابعة للإرسالية الأميركية في الكويت، العام ١٩١٠، وقيامه بالعمل الطبي والتبشيري فيها لشهور عدة، أستدعته إدارة الإرسالية الأميركية في البحرين للقيام بجولات طبية وتبشيرية في بعض مدن الخليج.

وعلى الرغم من ظروف التنقل والتجوال، التي فرضت على الطبيب بنينجس، إلا أن كل ذلك لم يمنعه من العودة، مرة أخرى، إلى الكويت.

ومن بين جميع المدن العربية في الخليج، كان يشعر بنينجس بأن الكويت هي المدينة الأقرب إلى نفسه؛ فهي المدينة الأولى التي بدأ فيها عمله، وهي أيضاً المدينة التي احتفظ لها بالكثير من الذكريات والانطباعات.

وفي نهاية العام ١٩١٤، انتهز فرصة إصدار عدد خاص عن الكويت، من مجلة الإرسالية الأميركية، «الجزيرة العربية المنسية»، فكتب لها مقالاً خاصاً عن مدينة الكويت، قال فيه :

بين جميع المدن العربية في الخليج، تبدو الكويت أكثر المدن تميزاً. فالكويت، بموقعها والمنطقة الميحطة بها، تبدو مدينة عربية نموذجية. وباستثناء الجهة التي تطل على البحر، تحاصر الكويت صحراء قاحلة تماماً.

ومن جهة البحر، تبدو المدينة وكأنها تخلو من الجاذبية، فعلى امتداد خط منخفض رتيب، تنتشر بيوت رمادية اللون، تمتد على مسافة ثلاثة أميال على الساحل. ويقدر عدد البيوت في هذه المنطقة بأكثر من خمسين ألف مسكن. ومعظم البيوت هنا من طابق واحد، ولكنها تبدو من الخارج عالية، وكأنها في مستوى أرتفاع أسوار المدينة الصغيرة، المشهورة. وغرف هذه البيوت بنيت بشكل ينسجم مع طبائع المعيشة، ويوجد فيها فناء داخلي مفتوح. وعموماً، فإن خصائص هذه البيوت أقيمت لكي تتناسب مع العادات التقاليد الإسلامية.

أما شوارع الكويت، فهي عادة ضيقة، وخصوصاً في الأجزاء القديمة من المدينة. ويمكن للمارة عبورها بسهولة، ولكن بالنسبة إلى حمار محمل بالأغراض، فإن المرور يبدو صعباً. والشوارع أيضاً تبدو في معظمها غير منتظمة، وكثيرة التعاريج. وفي أجزاء عديدة، تبدو الشوارع وكأنها متاهات حقيقية، يضيع فيها الغريب، ويفقد طريقه، مثل مدينة «بوستن» الأميركية.

وبسبب ظروف الحياة القاسية، والمناخ الصعب، تبدو الشوارع قاتمة وخالية من الحياة، باستثناء شوارع السوق، التي تعج دائماً بالنشاط والحركة. ومعظم دكاكين السوق، تبيع بضائع قليلة يشتريها، عادة، سكان المدينة وبدو الصحراء. ومن الممكن، على الرغم من ذلك، الحصول على بضائع كمالية؛ فقد وجدت أن العرب حرصاء جداً على استيراد البضائع الغربية الكمالية.

وفي الجهة الجنوبية من المدينة، يمكن مشاهدة سوق كبير للبدو، يبيعون فيها محصول الصحراء القليل، مثل الحطب والجلود والصوف والأغنام والزبدة الطازجة.

وخلف السوق، يمكن رؤية بعض البدو، وهم ينصبون خياماً سوداء من الشعر، وهي مصنوعة من شعر العنز، وينصبها البدو، عادة، عندما يودون المتاجرة في السوق لبضعة أيام، ثم يتركونها لغيرهم من البدو.

وللكويت نشاط تجاري كبير، يعتمد على نقل تمور مدينة البصرة العراقية إلى جنوب الجزيرة العربية ووسطها والهند، بالإضافة إلى بعض الموانئ في شرق أفريقيا. ويتم ذلك بوساطة أسطول كبير، يقارب ٣٠ سفينة بحرية، يحمل ما يقارب ٣٠٠ طن من التمور، على متن كل واحدة منها، وتغادر الكويت في تشرين الأول/اكتوبر من كل عام. وفي آب/أغسطس تعود هذه السفن إلى الكويت، وهي محملة بالأخشاب والأغنام وأخشاب بناء البيوت.

وبجانب هذه التجارة النشطة، يعد صيد اللؤلؤ المصدر الرئيس لرخاء الكويت. ويعمل في التجارة آلاف الكويتيين.

وإضافة إلى التمور واللؤلؤ، فإن الكويت تعتمد كثيراً على التجارة الداخلية، والتجارة مع المناطق القريبة، مثل نجد، خصوصاً في استيراد وتصدير الأرز والشاي والقهوة والسكر.

وعلى الرغم من كل شيء، فإنه من الصعب القول إذا كان مجيء السكة الحديد سيغير، في المستقبل، إلى الكويت، من مميزات هذه المدينة أولا.

أوضاع مدرسة الإرسالية في الكويت، العام ١٩١٢ :

تسعة تلاميذ. . . ومعارضة قوية

في بداية العام ١٩١٢، قامت الإرسالية الأميركية بافتتاح مدرسة صغيرة في مدينة الكويت، لتعليم اللغة الإنكليزية وبعض العلوم الحديثة على نمط متطور.

وحول هذه المدرسة، أجرى المبشر ادوين كالفيري حواراً، في مجلة الإرسالية الأميركية، في عدد كانون الأول/ديسمبر ١٩١٢، مع أحد مسؤولي المدرسة. وجاء الحوار كالأتي :

ـ لقد سمعت أن مدرستكم في الكويت قد توقفت.

حسناً. يمكن أن تقول هذا، ولكن نحن نريد أن نقول إن الأكاديمية المسيحية قد انتهت من فصلها الدراسي الأول فقط.

ـ إذا، أنتم تتوقعون أن تفتح المدرسة أبوابها مرة أخرى. ولكن كان عليكم إيقافها مؤقتاً. كيف حدث ذلك ؟

إن آباء معظم التلاميذ هنا قاموا بأخذهم من المدرسة، أما الباقون، فقد ابتعدوا عنها.

ـ لكن هؤلاء الآباء كانوا طيبين، في البداية على الأقل، أليس كذلك ؟

هذا صحيح. ففي البداية، أتى إلينا كثيرون لتلقي دروس في اللغة الإنكليزية.

ولكن هناك بعض الأمور تحدث على غير حسبان. فعندما نجري في العيادة الطبية عملية لأحد الأشخاص، ولا نرسل له فاتورة، يظن أنه يمكن إرسال خمسة من أولاده دفعة واحدة إلى المدرسة، وأن علينا أن نقبلهم جميعاً، وهكذا.

ـ كم تلميذاً لديكم في المدرسة ؟

يوجد لدينا تسعة أو عشرة تلاميذ مسلمون وثلاثة يهود.

ـ هل يبقى التلاميذ عندكم لفترة كافية، كي يستطيعوا تعلم بعض الاشياء المفيدة؟

نعم. ففي بداية الأشهر الثلاثة الأولى، تقوم بتدريسهم اللغة الإنكليزية، إلى جانب اللغة التركية. وكذلك يتعلم الطلاب لغتهم، وهي اللغة العربية، إضافة إلى الحساب والجغرافيا بطريقة أفضل من تلك المتبعة في الكتاتيب.

ـ لا شك في أن هناك ضغوطاً كثيرة تمارس على تلاميذ المدرسة. كيف بدأت المعارضة ضد المدرسة ؟

لقد سمع بعض أولياء الأمور أن أولادهم يأتون إلى الصلاة يوم الأحد، وأدركوا خطر ذلك. بعدها قام المسلمون في الكويت بتنظيم مدرسة كبيرة وجديدة، خاصة بهم. طبعاً، أرادوا إلحاق التلاميذ المسلمين بالمدرسة، وطلبوا مساهمات وتبرعات من أولياء أمورهم.

وبجانب ذلك، وقبل مغادرة التلاميذ المدرسة بفترة، استطاعت مكتبتنا المسيحية في سوق الكويت، أن تجذب الكثير من الناس، وتبيع أعداداً كبيرة من الإنجيل. ولفت ذلك أنظار رجال الدين هنا. لذلك، قاموا وبسرعة، بمهاجمتنا، وراحوا يخطبون في المساجد ضدنا.

. هل أضروا بأنشطة أخرى للإرسالية في الكويت ؟

نعم. فقد كان ذلك سبباً لأعمال مشابهة، إذ توقف فجأة اجتماع بائعي الكتب المسيحية، الذي كان يعقد مساء كل سبت في بيوت البائعين، إضافة إلى نشاط الأحد في المدرسة.

. نباء على هذه النتائج. هل تعتقد أن المدرسة تستحق الوقت والمال اللذين يبذلان في سبيلها ؟

إن نفقات المدرسة قليلة جداً. فالتلاميذ يحضرون طاولاتهم واوراقهم واقلامهم معهم. وفي الواقع، إننا نرغب في صرف المزيد عليهم، لتزويدهم بالأجهزة والمعدات الواجب أن نوفرها لهم. ولكن حالياً، لا يوجد شيء أفضل لنا من الحصول على عشرات التلاميذ للدراسة عندنا لمدة ٦ أو ٧ ساعات في اليوم.

. ولكن، أسيسمح لكم بتعليمهم أي مواد دينية؟

لا. وعلى العموم، لدينا فرص ممتازة لشرح وتصحيح أفكارهم الخاطئة عن المسيحية.

. هناك شيء آخر أريد أن أسألك في شأنه، وهو :كيف تقنع الأولاد بالمجيء إلى المدرسة ؟

ندعوهم لرؤية كيفية العبادات المسيحية، وللغناء مع أرغن صغير. ونعطيهم أيضاً محادثة بسيطة حول قصة المسيح والحياة المسيحية.

. هل تعتقد أن هذه الأشياء ستغير دينهم ؟

بصعوبة، لكن هذه الأشياء تساعد. كما أنها تريهم، بالتأكيد، ماهية المسيحية بشكل أفضل، وتجعلهم يقلعون عن اعتقاداتهم السابقة بأننا كفار ولا نصلي.

. لماذا تعطون أهمية كبيرة للمدرسة، على الرغم من وجود تلاميذ قليلين فيها ؟

لأنها الطريقة الوحيدة المؤثرة في الشباب في الكويت على المدى الطويل، كما أن العدد القليل يعطي انطباعاً بالقوة.

وانتهت المقابلة، ولم تنته مشكلات مدرسة الإرسالية الأميركية في الكويت.

الطبيب ستانلي ميلري في المنامة، العام ١٩١١:

الطاعون ينشر الحزن والدموع

لم يغب مرض الطاعون عن منطقة الخليج، سوى سنوات قليلة متباعدة من بداية القرن العشرين. وفي كل مرة، كان يحصد معه آلاف الموتى، ويخلف اياماً حزينة يطول أمدها.

ومع الدموع التي اختلطت بها آهات وويلات الناس البسطاء، كان الجميع يحاولون المقاومة، من حكومات ومواطنين، وحتى السلطات الاستعمارية، ولكن من دون فائدة.

وكالعادة، رجع الطاعون، بعدما اختفى بضع سنوات، إلى البحرين، في بداية العام ١٩١١.

ومع عودته، عادت الجنائز إلى الظهور، وانتشر الحزن في كل مكان. في تلك الأيام، كان طبيب الإرسالية الأميركية، ستانلي ميلري، يراقب ما يحدث، فسجل بعض الانطباعات، التي كتبها في مجلة الإرسالية الأميركية :

إن جميع ما حدث في الفترة الأخيرة، لا تزال صورته أمامي. فقد كانت نتائج مرض الطاعون موت آلاف البشر، ومن جميع الطبقات والأجناس.

فالطاعون الذي سبب فزعاً رهيباً، عند انتشاره في أوروبا، وهوالذي قتل المئات من الهند، هذا المرض الفتاك، أصبح معنا في البحرين.

ففي كل يوم، تتوجه جنائز متلاحقة إلى المقابر. ومع ازدياد عدد الموتى بسبب الطاعون، راحت شعائر ومراسم الجنائز، التي تقام للموتى، عادة تقل شيئاً فشيئاً.

عاد الموتى لا يدفنون كالسابق، فبدلاً من حملهم إلى المقبرة على نعوش جيدة، وفي موكب جليل، تكفن فيه الجثة بكفن معقول، خفت هذه المراسم، بسبب الأعداد الهائلة من الموتى.

ومع بداية كل يوم جديد، كان الحزن والموت يمضيان معاً في الطرقات والبيوت، بلا توقف ولا رحمة.

وأكثر من ذلك، أصبح الناس، مع الوقت، لا يجدون وقتاً كافياً لحفر قبور الموتى بعمق كاف.

وحتى الآن، فإن ما يقارب ٥٠٠ شخص، ماتوا بسبب الطاعون. ومع أن هذا العدد ليس كبيراً نسبياً، إلا أنه عدد ضخم جداً، بالنسبة إلى عدد سكان البحرين.

وبسبب هذا الموت الكثير، راح الناس يشعرون بفقدان الأمل. وفي هذه المحنة الشديدة، بدأ المسلمون، هنا، يبحثون عن مساعدة من شخص ما، يخلصهم من هذا العذاب، لكنهم لم يجدوا غير الصلاة.

وهكذا كنا، في كل ليلة، نستيقظ في أوقات مختلفة على أصوات بكاء ودعاء المؤذنيين، الذين كانوا يرددون :«الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. أشهد أن علي ولي الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. الله أكبر، لا إله إلا الله».

وينتشر الدعاء من بيت إلى بيت. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى تنتشر في السماء دعوات الصلاة والتكبير من كل مكان، وفي أوقات غير مواعيد الصلاة المعروفة. وفي أحيان كثيرة، كانت الدعوات لا تخرج من المساجد فقط، بل من البيوت ايضاً، فيختلط بعضها ببعض.

وفـي النهايـة، تـنخفض الأصـوات تـدريجياً بهـدوء مـع الظـلام، ثـم تعـود مـرة أخـرى. ولوقـت طويل، تبدو هذه الدعوات، وكأنها أصوات صراخ من بشر ينتظرون المساعدة العاجلة.

وبعد تلك الليلة، التي نذق فيها طعم النوم، قابلت أحد الأشخاص في سوق المنامة. وكنت أعرفه، لأنه كان أحد مرضاي. وعندما سألته عما فعله الناس في الليلةالماضية، أجابني :«لقد كنا نصلي وندعو ربنا». وأضاف :«كنا ندعوه أن يبعد الطاعون عنا. فلقد أصبحت قلوبنا مثقلة بالأحزان. أنا نفسي، فقدت بسبب الطاعون أمي وزوجتي وأخي وعمي، وأسرتي بكاملها تقريباً».

وعندما سألته عن الصلوات الكثيرة، ألتي أقيمت في الليلة الماضية، قال لي بغضب :«وماذا تريدنا أن نفعل؟ آه. . . إن قلوبنا ذهبت مع هؤلاء الموتى المساكين».

وفي الواقع، إن القليل من هؤلاء الضحايا، ذهبوا إلى الأطباء، الذين كانوا لا يستطيعون القيام بشيء مؤثر تجاه الطاعون.

وقد رأيت بنفسي موت سبعين حالة تقريباً، كان من بينهم شيوخ من العرب، وتجار يهود، وتجار فرس، وتجار لؤلؤ هنود، علاوة على حرفيين وحماليين، وكلهم دفعوا ضريبة الطاعون، الذي لم يفرق بين الناس إطلاقاً.

وعلى الرغم من كل هذه الضحايا، إلا أن اياً من المسيحيين الموجودين في البحرين، لم يصب بهذا المرض، حتى الآن. ولعل هذا يرجع، في الدرجة الأولى، إلى أن معظمهم قد أخذوا لقاحات ضد المرض، قبل فترة.

الطبيب الأميركي شارون توماس في الشارقة، العام ١٩٠٦:

أمثال سليمان الحكيم تحمي من الشيطان

على الرغم من الإحباطات الكثيرة، التي عاناها المبشر الاميركي شارون توماس، عندما زار الشارقة، قبل سنوات عدة، وتحديداً في العام ١٩٠٢، إلا أنه قرر في بداية أيلول/سبتمبر ١٩٠٦، وفي اللحظات الأخيرة، القيام بزيارة الشارقة، ولكن من دون حماسة ظاهرة، هذه المرة.

وهكذا اعتبر المبشر والطبيب شارون زيارة الشارقة نوعاً من تأدية الواجب، الذي تفرضه عليه الإرسالية العربية ـ الأميركية، ومقرها البحرين. وكتب عن تلك الزيارة قائلاً.

لقد قمت، في هذه الزيارة، التي رافقني فيها بائع الكتب الخاص بالإرسالية، بإحضار عدة مئات من كتب الإنجيل، ومجموعة من الأدوية والضمادات، وبعض الثياب وأدوات أخرى قليلة قد نحتاج إليها.

وقد بدأت رحلتنا الشاقة بالتوجه إلى أحد موانئ فارس، بوساطة باخرة صغيرة من المنامة، ووصلنا، بعد أيام عدة، إلى ميناء لنجة المشهور، على أمل أن نحصل في لنجة على قارب ينقلنا إلى الشارقة.

وعلى الرغم من أننا وجدنا قارباً جاهزاً للإبحار، في الليلة نفسها، التي وصلنا فيها لنجة، إلا أننا اضطررنا إلى تأجيل الرحلة لكي نرتاح من عناء السفر الطويل من البحرين. وبالفعل، فلم نكن قادرين على السفر، إلا بعد مضي خمسة أيام كاملة.

وعند سفرنا من لنجة، كانت سفينتنا تحمل حمولة ضخمة، تتكون من التمور والسلال والخشب، إضافة إلى المسافرين، طبعاً وقد عوملنا على أساس أننا ركاب درجة أولى، فأعطينا مكاناً على سطح السفينة لفرش النوم. ومع أن بعض الركاب لا يملكون أي نفوذ، فقد سمح لهم القبطان بالسفر مجاناً. وفي حين كان المسافرون المحليون، يدفعون روبية واحدة للسفر إلى الشارقة، ويتناولون طعاماً جيداً مع الكابتن وطاقم السفينة، فقد أضطررنا نحن إلى دفع ٢٠ روبية لثلاثة أشخاص، وتجهيز طعامنا وشرابنا بأنفسنا.

وأفضل ما قمنا به، هو أننا أحضرنا معنا حليباً مغلياً وبيضاً وبعض الخبز والخضراوات والفواكه وغيرها، وذلك حتى لانصاب بدوار البحر اللعين.

وأثناء رحلتنا، واجهنا جواً سيئاً. فالرياح جعلت السفينة تتمايل وتتأرجح معظم الوقت، بل راحت مقدمة السفينة تغوص في عمق الماء وتعلو، طول الليل. وكنا نتخيل أننا قطعنا نصف مسافة الطريق، ولكن في الصباح، وجدنا أنفسنا في المكان نفسه، الذي بدأنا منه الليلة الماضية.

وفي الليلة التالية، استطاعت السفينة تحقيق تقدم بسيط، ولكن هطول الأمطار بشدة أفسد كل شيء. ولأنه لا يوجد شيء يقينا من الأمطار، باستثناء «البطانية» فقد تبللنا بسرعة، وأصبحنا في وضع غير مريح. ثم راح المطر يسقط على صناديقنا الخاصة، وهكذا لم نستطع حتى تبديل ملابسنا، التي تركناها تجف فوق اجسادنا حتى اليوم التالي.

وبعد هذه الرحلة الشاقة، وصلنا الشارقة عصر اليوم التالي، وقررنا الخلود إلى الراحة حتى الصباح.

وفي الصباح الباكر، بدأت فوراً بمعالجة المرضى الكثيرين الذين جاؤوا إلينا. ولم ينته الأسبوع الأول، حتى سجلت في مفكرتي أننا استطعنا معالجة ٥٠٠ مريض، وأجرينا العديد من العمليات.

وبجانب علاج المرضى، فقد استطعنا التقاط بعض الصور الفوتوغرافية، بعضها يظهر مجموعة من العرب، وهم ينتظرون العلاج، وكل صورة من الصور تبين مدى الاهتمام العظيم عند الناس بالعلاج، واثناء إعطاء الأدوية لهم.

في الواقع، لقد وجدنا تطورات كبيرة في أوضاع الساحل العماني كله، في هذه الزيارة. فالناس أمسوا أكثر تسامحاً وودية، على الرغم من الكثير من العقبات، التي لا تزال تواجهنا هنا.

وأكثر من ذلك، فقد ساعد العمل الطبي على بيع الكتب المقدسة، الإنجيل، إذ استطعنا بيع مئة نسخة.

وبجانب ذلك، فقد شهدت الشارقة وغيرها من مدن الساحل العماني، تطورات كبيرة، منذ أول زيارة قام بها المبشر الدكتور صموئيل زويمر إليها، العام ١٨٩٨.

وعلى الرغم من كل شيء، إلا أن الصعوبات لا يمكن أن تنتهي بسهولة، فلدى مغادرتي الشارقة، مثلاً، أخبرني مساعدي الطبي، أمين، أنه على الرغم من معاملته الحسنة للناس ولباقته وصبره، إلا أنه لاحظ تغيرات كبيرة عند الناس، بعد مغادرتي. فقد كف الكثيرون عن الحضور، وأصبحوا يعاملونه بقسوة لا مبرر لها.

ولعل أكثر ما لفت نظري، قبل مغادرتي، هو مشاهدتنا لبعض الأطفال الفقراء، في القرى القريبة من الشارقة، يخيطون بعض أمثال وحكم سليمان الحكيم على حقائب جلدية صغيرة، لكي يعلقوها على رقابهم، لتحميهم من عين الشيطان.

المبشر صموئيل زويمر في زيارة قصيرة إلى الكويت، العام ١٩٠٣ :

رحلة مع الدراويش. . . والأغنام

لم يترك المبشر المعروف وقائد الإرسالية الأميركية، صموئيل زويمر، مدينة في الخليج والجزيرة العربية، إلا وركب الحمير والخيول والجمال من أجل زيارتها. ولم يترك قرية إلا وأقام فيها، ولا ميناء إلاّ وأبحر منه بزورق أو قارب أو باخرة. ولذلك فلم تكن الكويت استثناء، بالنسبة إليه.

ففي ١٤ شباط/فبراير العام ١٩٠٣، غادر زويمر البحرين، مقر إقامته آنذاك، متوجهاً إلى الكويت. وكتب عن تلك الرحلة قائلاً.

غادرت البحرين، اليوم، بوساطة الباخرة، للقيام بزيارة قصيرة إلى الكويت، لرؤية احتمالات عمل الإرسالية، وتشجيع بائعي الكتب، هناك، على مزيد من العمل. وقد سررت كثيراً، بعد وصولي إلى ميناء الكويت؛ إذ وجدت بائع كتب الإرسالية، سلوم عنتون، يرحب بي على ظهر السفينة. وبدلاً من التطلع إلى استئجار بيت للإقامة فيه، ذهبت مع عنتون إلى بيت الإرسالية في الكويت، الذي استطعنا الحصول على رخصة من الحاكم باستئجاره لمدة عام كامل.

البائع سلوم عنتون مسيحي من مدينة الموصل العراقية. وقد تدرب في الإرسالية في بغداد. ولديه خبرة عشر سنوات في بيع الكتب المسيحية. كما عمل، سابقاً، ضمن جمعيات مسيحية أمريكية وإنكليزية.

وفي الواقع، لقد أشعرني أطفال عنتون الخمسة، الذين كانوا يبدون في صحة جيدة، مع أمهم، وكأنني في بيتي تماماً. وكان البيت، الذي أقمت فيه، يتكون من ثلاث غرف فقط.

ومنذ الأيام الأولى لإقامتي في الكويت، شعرت براحة شديدة، ولم أحس بأي مضايقات، لكوننا نسكن كمسيحيين بقرب عائلات مسلمة، على الإطلاق.

وفي كثير من الأحيان، كان يأتي إلى بيتنا زوار كثيرون، أحدهم حاخام يهودي، وجدت أن الحديث الطويل معه، كان لطيفاً. وضمن مناقشاتنا الدينية، اعترف لي اليهودي بعظمة يسوع المسيح، وبأنه معلم مقدس، لكنه لم يعترف مطلقاً بأن المسيح كان نبياً.

وكان يزورنا أيضاً صديق قديم، وهو مسلم متصوف، أجريت معه العديد من النقاشات الدينية.

وفي صباح أحد الأيام، قمت بزيارة مكتبة الإرسالية في مدينة الكويت. وتقع المكتبة في مكان ممتاز في السوق الرئيسة للمدينة، وفي مواجهة المسجد الرئيس.

وقد أعجبني، في أثناء تجوالي في السوق، كلمات جميلة من القرآن، كان يبيعها دكان فارسي، وكانت مكتوبة بماء الذهب، وموضوعة في لوحات معلقة على دكانه. ،وكان بعض تلك الكلمات يقول :«على الله توكلنا» وغير ذلك.

وبسبب معرفتي بنفاد كميات الكتب المسيحية في المكتبة، أحضرت معي من البحرين كميات جديدة، وتم تزويدها بمخزون جيد. ووجدت أنه يجب علينا الإسراع في تطوير المكتبة. فهناك، كما لاحظت، طلب للكتب التعليمية والقرطاسية. وفي مقابل ذلك، لاحظت أن عمليات بيع كتب الإنجيل تحقق نجاحاً جيداً، كما أن بائعينا استطاعوا تحقيق عمل عظيم، في هذا المجال، من دون أن تقابلهم معارضة كبيرة.

وعلى الرغم من أن الكويت واقعة تحت الحماية البريطانية، مثل غيرها من مناطق الخليج، إلا أن شيخها مستقل جداً، ويستطيع تصريف أمور بلاده بحرية. وهذا الشيخ نفسه هو الذي أعطى سلوم عنتون الترخيص بفتح مكتبة مسيحية، تباع فيها كتب الإنجيل وغيرها. ولعل هذا الترخيص يشجعنا على افتتاح أعمال أخرى في الكويت.

ولقد كنت سعيداً جداً، حين استطعت مقابلة الشيخ مرتين، خلال إقامتي القصيرة. وسررت، كذلك، بسماع آراء الشيخ الطيبة والودية في بائع الكتب، بعد مرور ستة أشهر تقريباً في الكويت.

وعلى الرغم من المدة البسيطة، التي لا تتجاوز أربعة ايام، والمهمة المحددة التي جئت من البحرين من أجلها، إلا أنني أستطيع أن أقول إنني استفدت كثيراً، وتعلمت أشياء جديدة.

لقد تغيرت، في الكويت، الكثير من الأشياء، كما لاحظت بنفسي. فقد ازداد عدد سكان هذه البلاد، ووصل إلى ٢٥ ألف نسمة. وكبرت السوق، التي أصبح في الإمكان أن تجد فيها البضائع المتنوعة متوافرة. وبدلاً من النقود التركية والفارسية، المتداولة سابقاً، فإنك تجد، الآن، الروبية الهندية والقطع النحاسية.

ومع أن هذه التغيرات هي التي يلاحظها أي زائر للكويت، إلا أنه ليس هناك، الآن، أحاديث عن السكة الحديد، مثل السابق. لكن تجار الكويت، في مقابل ذلك، يتوقعون حصاداً وثراء أسرع من التجارة مع نجد في الجزيرة العربية.

تركت كل تلك التغيرات والأحاديث ورائي، وغادرت الكويت، في صباح يو السبت ٢٠ شباط /فبراير على متن سفينة صغيرة، تحمل الأغنام والبضائع المختلفة.

وبسبب الرياح المعاكسة، توقفنا عند جزيرة، قرب الأحساء، وجد فيها قبطان السفينة فرصة لرعي الاغنام.

وبجانب الأغنام، كان معنا في السفينة درويش من القاهرة، وآخر من المدينة المنورة في الجزيرة العربية، وتاجر عراقي من العمارة، وفارسيان، وبدوي الأغنام، التي يبلغ عددها كما أخبرني البدوي ١٤٠ رأساً.

وفي اليوم التاسع، بعد مغادرتنا الكويت، وصلنا إلى ميناء المنامة في البحرين، بعد رحلة طويلة ومتعبة.

المبشر صموئيل زويمر يكتب عن البحرين، العام ١٨٩٩ :

يوم بارد في الشرق

مع بدء عمل الإرسالية الأميركية في البحرين، وتوافد المبشرين على منطقة الخليج وعملهم في المجال الطبي والتبشيري المسيحي، وصلت رسائل قليلة من أميركا، تطالب الموجودين في الخليج بضرورة الكتابة عن هذه البلدان وظروفها وطبائع ناسها، والأهم عن كيفية القيام بأعمالهم، التي جاؤوا من أميركا لتنفيذها.

وبسبب هذا الإلحاح المتواصل، قرر المبشر المعروف صموئيل زويمر الكتابة، في مجلة الإرسالية الأميركية، عن كيفية قضاء «الإرساليين» ليوم واحد في البحرين، فكيف يقول :

سأتحدث إليكم عن يوم من أيام كانون الأول /ديسمبر الباردة. إنه السابع من كانون الأول/ديسمبر. يوم بارد مشمس شرقي من أيام الشتاء اللطيفة. والرياح الشمالية تهب، عادة، على البلاد طول اليوم. لكن ذلك لا يعوق عمل الإرسالية ولا يعرقل نشاطنا إطلاقاً.

ففي الساعة السادسة صباحاً، نستيقظ من نومنا، وبينما تقوم زوجتي بمساعدة الأطفال على ارتداء ملابسهم، أقوم بقراءة مقاطع من الإنجيل. وفي هذا الصباح، انقطعت عن القراءة، بسبب زائر غير متوقع، وهو تاجر هندي، جاء إلى البيت ليشتري خارطة البحرين، وأطلساً جغرافياً، لم يحصل عليهما، أمس، في مكتبة الإرسالية في سوق المنامة. وقد بقي التاجر الهندي معنا بعض الوقت، وأخذ معه كتباً عدة، لكنه أعادها، بعد فترة، بكل لطف.

وبعد الإفطار البسيط، التقينا بعوائل الإرسالية، إضافة إلى بائعي الكتب، للقيام بالصلاة الصباحية المعتادة. وخلال الصلاة، قرأنا مقاطع من الإنجيل، وقام المبشر جوزف بإلقاء خطبة صغيرة، ثم قاد الصلاة.

وقبل صلاتنا، كان هناك العشرات، وربما أكثر، من المرضى، واقفين أمام بوابة الإرسالية ينتظرون افتتاح المستوصف على أحر من الجمر.

وعند انتهاء الصلاة، انصرف كل منا عمله؛ ذهب المبشر جوزف إلى سوق الخميس الاسبوعي، الذي يقام، كل خميس، في منطقة تبعد عن المنامة بضعة أميال. بينما راح الطبيب جبرائيل يضمد جروح المرضى. وقمت أنا بمعالجة المصابين بالحمى، ووضع قطرة العيون في عيون المرضى.

وفي الوقت نفسه، كانت زوجتي تعتني بطفلنا الصغير وتنويمه، بينما كان العامل العماني، سليمان، يتولى أعمال التنظيف، والخادمة الأخرى تقوم باعمال المنزل المعتادة، وطباخ الإرسالية يصنع بعض الحلوى.

وعند الساعة العاشرة، قمت بزيارة مبنى الإرسالية الكبير، خارج المنامة، الذي كان يجري بناؤه. وأثناء الزيارة، أخبرني كبير البنائين أن قاضي البحرين المعروف، الشيخ قاسم المهزع، قد أرسل في طلبي، وأنه يريد مقابلتي فوراً. وفي الحال، ذهبت إلى الشيخ قاسم، الذي كرر علي طلباته السابقة، بعدم بيع الكتب المسيحية والتوقف عن التبشير.

وعندما وصلت إلى بيت الإرسالية، كان بعض الرجال والنساء والمرضى يحاصرون البوابة، وبينهم رجل مستلق على نعش، يحمله رجلان، وترافقه زوجته. وبعد معالجته من بعض القروح في رقبته، تم نقله إلى المسجد القريب منا، حيث وجد له مكاناً مريحاً في إحدى زوايا المسجد، على الرغم من إصراره على البقاء في المستوصف.

بعدها، جاء وقت الغداء، الذي احتوى لحم الضأن والأرز والخبز المحلي والحلوى.

وقبل ذلك، عاد المبشر جوزف من رحلته إلى سوق الخميس، ولم يبع نسخة واحدة من الإنجيل، لكنه استطاع التحدث إلى كثير من الناس، وترك بعض الكراسات المسيحية عند بعضهم.

وخلال استراحة الظهر، كان بعض المبشرين يجهزون حميرهم لرحلات التبشير في الغد.

وعند العصر، استمر تدفق المرضى البؤساء إلى المستوصف. كانت إحدى الأمهات تحمل على يدها طفلاً صغيراً، لا يتجاوز عمره عشرة أيام. وكان هذا المخلوق الصغير يعاني التهاباً في بعض إجزاء جسمه. وقد قمنا بإعطائه بعض المهدئات، وألبسناه قميصاً صوفياً اتقاء للبرد. وقلنا لوالدته بعض الكلمات الطبية، وعندها فقط استراحت الأم، وذهبت مع ولدها، الذي يزن ثلاثة أرطال من المآسي، إلى بيتها هادئة.

وأثناء علاجي المرضى، قامت زوجتي بجولة في أحياء المدينة، مع خادم الإرسالية، سليمان، وهما يحملان حزماً من الثياب الصوفية، التي تمت خياطتها في الصيف. وفي هذه الجولة، تم توزيع العشرات من هذه الثياب على الأطفال المحتاجين والفقراء. وكانت هناك التماسات من الأكواخ الأخرى للحصول على بعض منها لأولادهم، وكأنهم يقولون إلن البرد يدخل كل البيوت، والجميع يود الشعور بالدفء.

وبجانب هذه الجولة، دعيت زوجتي لزيارة بيوت من الطبقة الغنية الراقية. وفي الواقع، كانت نساء تلك البيوت مهتمات اهتماماً كبيراً بأسلوب وطريقة حياتنا، إضافة إلى الديانة المسيحية، وأجانب عن جميع الأسئلة، التي كن يطرحنها عليها.

وفي باقي اليوم، أقوم أنا وزميلي جوزف بأخذ درس في اللغة العربية، وكنا نحاول عبر هذا الدرس تبادل المعرفة، وأحياناً تمضية الوقت.

ففي بعض الأحيان، يسألني جوزف بعض الأسئلة حول تفسيرات الكتاب المقدس، وعندما لا يقتنع بإجابتي، أقوم بالانتقام منه عبر إحراجه بأسئلة حول قواعد اللغة العربية، التي لا يفهمها جيداً.

وهناك وقت، في الليل، لعزف الموسيقى والقراءة، واحتساء الشاي أيضاً حتى يحين موعد النوم.

وهكذا ينتهي يوم عادي في الشرق، وبعد ساعات قليلة يبدأ يوم آخر صاخب.

المبشر صموئيل زويمر يزور القطيف، العام ١٨٩٣:

مدينة يحفها النخيل والتين والرمان

شجعت المقالات التي كتبها الطبيب المشهور بول هاريسون، عن رحلاته إلى الأحساء والرياض، في مجلة الإرسالية الأميركية، العام ١٩١٨، المبشر صموئيل زويمر على تذكر أولى رحلاته إلى الأحساء، التي أقام بها، العام ١٨٩٣.

فقام زويمر بالكتابة عن تلك الرحلة القديمة، بعد مرور ربع قرن تقريباً، وتحديداً في تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩١٩، وكتب قائلاً:

إن الطريق المعتاد بين البحرين والأحساء، لا بد أن يعني، بالنسبة إلى المسافر، أي مسافر، العبور بالسفينة إلى ميناء العجير، ومن ثم مواصلة السفر عبر القوافل التجارية إلى العاصمة الهفوف.

ففي مغرب أحد أيام تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٣، ركبت سفينة صغيرة، ووصلنا العجير قبيل فجر اليوم التالي. وبعد استراحة قصيرة في الميناء، ذهبت فوراً إلى ضابط الجمارك التركي، حيث سلمته رسالة ودية من تاجر بحريني، حملت أيضاً توصية بشأني.

وقد كانت العجير، وقت زيارتي لها في تلك الفترة المبكرة، ميناء فقط. فلم يكن فيها سوق، ولا أماكن للسكن.

الأشياء الوحيدة، التي وجدتها فيها، كانت حصناً كبيراً، مبنياً من الطين، وفوقه سارية علم صغيرة، ومبنى ضخماً للجمارك. أما الميناء، فعلى الرغم من أنه ليس عميقاً، إلا أنه قادر على صد الرياح الشمالية والجنوبية، التي تهب، عادة، على المنطقة. ولهذا السبب أيضاً، يعتبر الميناء مكان نزول ممتازاً للكميات الهائلة من البضائع، وخصوصاً الأرز والأقمشة، التي تحمل بحراً من البحرين إلى داخل مدن الجزيرة العربية. وتغادر قافلة مكونة من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جمل محملة بالبضائع، العجير، كل أسبوع فبينما يزود شمال الجزيرة، براً، من البصرة وبغداد، تصل البضائع إلى جنوب نجد من طريق البحرين والعجير، وتشمل، عادة، كل شيء، بدءاً بالأقمشة والقهوة والأرز والسكر، وانتهاء ببضائع بيرمينغهام المشهورة.

وبسبب نشاط الميناء وحركة البضائع، فإنك تجد أن الأرض القريبة من مبنى الجمارك مملوءة بالرزم والصناديق وضجيج الجمال والحمالين.

ومنذ الصباح الباكر، بدأنا المقايضة للسفر إلى القطيف، مع أحد قادة القوافل، واسمه صالح. وبعد النقاش حول السعر، غادرت مع مجموعته، قبل العصر.

وعندما جاء الليل، توقفت القافلة للراحة والنوم. فمددنا البطانيات فوق الرمال النظيفة، ونمنا في الهواء الطلق. وفي الفجر، سارت القافلة مرة أخرى. وخلال اليوم، كانت الشمس حارة، وكان الطريق، ولساعات طويلة، مجرد صحراء جرداء، لكن صوراً رائعة، كانت تظهر بين حين وآخر لسلسلة تلال ترابية.

وفي الليل، تغير كل شيء، فتحت ضوء النجوم المتلألئة، وهبوب رياح شمالية خفيفة، صار الجو بارداً ولطيفاً على نحو غير متوقع.

وتوقفنا أيضاً، في استراحات متقطعة. وفي عصر اليوم التالي، لمحنا، من بعيد، غابات النخيل التي تحاصر الهفوف. وإذ ذاك، قررت القافلة التوقف عند قرية الجفر، والبقاء فيها لبعض الوقت.

وفي الجفر، كان لقائد القافلة، صالح، مجموعة من الأصدقاء، استضافونا بمودة إلى غداء لذيذ وطازج، يتكون من الخبز والزبد والحليب والتمر. وإضافة إلى الغداء، بقينا في ضياقة أصدقاء صالح حتى غادرنا القرية.

وعند غروب الشمس، ذهبنا إلى القرية المجاورة، واسمها المنيزلة، وهي منطقة تبعد حوالى ثلاثة أميال، عبر البساتين، وهي صاخية بالدواب المحملة بالماء. وفي صباح اليوم التالي، مشينا، مرة أخرى، عبر البساتين وأشجار النخيل، التي تظهر في منظر جميل في سديم الصباح الضبابي.

وفي السابعة صباحاً، ظهرت لنا الهفوف بمساجدها وأسوارها إلى الجانب الأيمن، بينما راحت الشمس تكشف الستار عن كل شيء، في منظر بديع جداً.

وللوهلة الأولى، تبدو الهفوف محاطة بالبساتين من كل صوب، ويتضح من تخطيطها وبنائها، أنها نموذج تقليدي للمدن العربية المنتشرة في الجزيرة العربية وباقي البلاد العربية. فيمكن مشاهدة بيت الحاكم أو القلعة الكبيرة، والسوق المحاطة بالمنازل، والسور الطيني المبني حولها ليحميها، إضافة إلى الخندق المائي، الذي جف، الآن، وامتلأ نصفه بحطام الأسوار، وأصبح في حالة سيئة، وغير صالح للاستعمال. كل هذه الأشياء تعطي المرء فكرة جيدة عن الصفات المميزة للمدينة العربية.

ومدينة الهفوف، ليست مدينة كبيرة. فمساحتها لا تتجاوز الميل ونصف الميل المربع، وهي على شكل دائرة كبيرة. والبيوت فيها لم تبن متلاصقة، مثل باقي المدن العربية والشرقية. ويمكن ملاحظة وجود نوع من بساتين النخيل داخل أحواش البيوت فيها. وأشجار النخيل كثيرة هنا، تنتشر في كل مكان، وتعطي منظراً رائعاً للمدينة. وعدا النخيل، فإنه يمكن مشاهدة أشجار الباباي والتين والرمان، في بعض المناطق.

وإلى جانب هذه الأشجار، يزرع أهالي القطيف القطن. وهناك مساحات كبيرة من مزارع الأرز وقصب السكر وبعض الخضراوات، مثل البصل والفجل والفاصولياء، كما تزرع الذرة أيضاً.

وعلاوة على كل ذلك، فإن الامتداد الضخم لمساحات النخيل، وعيون الماء المنتشرة في كل مكان، يثبت أن هناك خصوبة زراعية مدهشة في هذه المنطقة.

أما الآن، وبعد أن رحل الاتراك عن الأحساء، فإنه لا بد أن يجيء يوم، تقام فيه سكة حديد صغيرة، لتصدير التمور إلى ساحل العجير، الذي لا بد أن تكبر أرصفة مينائه وتتوسع، ومعه يزداد ورود آلاف الأكياس من الأرز والقهوة وغيرها، التي تعبر بسرعة إلى داخل الجزيرة العربية.

المبشر صموئيل زويمر يتجول، العام ١٩٠٢، في حضرموت :

حضرموت. . . عمارة وحضارة

على الرغم من الكثير من الرحلات والزيارات إلى مدن وقرى الخليج والجزيرة العربية، التي قام بها رئيس الإرسالية الأميركية، المبشر المشهور صموئيل زويمر، ومنذ فترة مبكرة، بدأت في العام ١٨٨٨تقريباً، فإنه اكتشف، وهو يقرأ الخرائط، أن هناك منطقة كبيرة في جنوب الجزيرة العربية لم تطأها أقدام رجال الإرسالية بعد، وهي حضرموت. وبعد الدراسة الفورية لتلك المنطقة وتاريخها، وحتى تضاريسها، ذهب إلى حضرموت، في مغامرة جديدة. وكتب عنها في العام ١٩٠٢، قائلاً:

منذ زمن بعيد، يطلق على المنطقة الكبيرة، الممتدة من عدن حتى مسقط، والبالغة حوالى ١٢٠٠ميل، والتي يبلغ عدد سكانها مليوناً ونصف المليون نسمة، يطلق عليها اسم حضرموت. وقد وجد في النقوش الحميرية المكتشفة . وهي الحضارة التي قامت قبل خمسة قرون من ميلاد المسيح . أن الاسم ما برح كما هو، ولم يتغير، وله المعنى والدلالة نفسها، أي «وادي الموت». وفي الواقع، إن الاسم لم يطلق على المنطقة بسبب خطرها في هذا الجزء من الجزيرة العربية، ولكنه ربما كان متعلقاً بمعركة برية، وقعت في هذه المنطقة، في الماضي البعيد.

وحضرموت هي واحدة من آخر المناطق غير المعروفة، والمنسية في الجزيرة العربية. وفي العام ١٨٤٣قام الرحالة رودي فان برحلة مشهورة إليها، وتغلغل إلى أبعد نقطة فيها. ولم يتبعه، بعد ذلك، سوى اثنين أو ثلاثة من الرحالة فقط.

وتعتبر سواحل حضرموت وميناؤها الرئيس، المكلاً، من المناطق المعروفة نسبياً، لكنه لايزال هناك الكثير من الوديان الخصيبة والواحات في الأراضي الجبلية، التي لم تكتشف بعد.

وتنقسم حضرموت إلى ثلاث مناطق:فهناك المكلا، وتسكنها قبائل اليافع وبنو عيسى، وبلاد المهرة، وم، ومنطقة شرق حضرموت، التي تسكنها قبائل القارح.

وحتى الآن، لا توجد أي إرساليات في أي مدينة في هذه المناطق. ولا يوجد أي بائع للكتب المسيحية، قام بزيارة حضرموت، منذ زيارتي إلى المكلا في أيار/مايو العام ١٨٩١ .

وميناء المكلا المشهور، يتصل بعدن، بوساطة البواخر المقبلة والمغادرة باستمرار، وبواسطة مكتب البريد الهندي، الموجود هناك. وأتذكر أن رحلتنا، العام ١٨٩١، قد استغرقت، من عدن إلى المكلا، واحداً وعشرين يوماً، على متن سفينة محلية، كان هيكلها مصنوعاً من خشب الصندل.

وقد بني هذا الميناء الرئيس لحضرموت، والموقع الاستراتيجي للمنطقة، على مساحة بارزة من أرض مرتفعة على جبل الكارا. وهذه الأرض تقع بمحاذاة البحر، فوق سلسلة من سطوح الجبال، التي يزيد ارتفاعها على خمسة آلاف قدم، وترتبط بجبل آخر، يبلغ ارتفاعه ٨ آلاف قدم.

وفي هذه الزيارة، وصلنا إلى المكلاّ من عدن، بعد تأخر طويل ورياح معاكسة، استمرت أياماً طوالاً في البحر.

وفي الأيام الأولى في المكلاّ، عرفت أن الميناء وأرصفته يعملان لحساب الحكومات الأوروبية، بينما وجدت أن الآبار العامة، والسوق الكبيرة، كلها ملك لحاكم المكلاّ، الذي أثبت أنه سلطان، بالاسم والفعل.

وأول ما يلفت نظرك في حضرموت، هو فنون العمارة والفنون الأخرى، الموجودة في كل مكان. ولعل هذه الفنون تظهر أن عرب حضرموت، كانوا متصلين بالحضارات والثقافات الأخرى، منذ زمن بعيد. تدل على ذلك مئات السجلات المكتشفة عن الأمبراطورية الحميرية القديمة، والنقوش المتعددة، التي تتحدث عن عادات ولغات أهل حضرموت، في تلك الفترة، علاوة على التأثيرات الكبيرة للتجارة مع الهند، والمستمرة منذ قرون طويلة.

ويمكن، بسهولة، ملاحظة انقسام سكان حضرموت إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى، هي قبائل كبيرة من البدو المنتشرين في جميع مناطق حضرموت تقريباً. وهم الذين يتولون التجارة وشؤون الدفاع والامن في المكلا.

وعلى الرغم من انعزالهم، إلا أنهم لا يعيشون في خيام على الإطلاق، كما يفعل البدو في معظم مناطق الجزيرة العربية. وأغنياؤهم يعيشون في بيوت عادية. أما الفقراء منهم، فيسكنون في كهوف.

أما الطبقة الثانية، فتتكون من العرب ذوي الاصل النقي (إذ الكثير من أهل حضرموت من أصول هندية، بسبب التزاوج مع شرق آسيا والهند، منذ قرون عدة). وهؤلاء يعيشون في المدن ويملكون إجزاء كبيرة من الأراضي الخصبة. وبينهم وبين البدو صراعات متكررة، بسبب الثأر.

والطبقة الثالثة، هنا، تسمى السادة والاشراف، وهم جزء من النظام الأرستقراطي. ولهذه الطبقة تأثير ضخم وهائل، ومعظم أهلها أثرياء. وهم مسؤولون عن التعليم في حضرموت. وعلى الرغم من أنهم مشهورون بالمحافظة ومعارضة التاثيرات الخارجية في بلادهم، إلا أنهم يقفون إلى جانب القانون والنظام دائماً.

والطبقة الرابعة، هي طبقة العبيد الزنوج. وعلى الرغم من أن عددهم ليس كبيراً في حضرموت، كما في عمان، إلا ان وجودهم ملاحظ في أي مدينة.

والعرب، في شرق حضرموت، معظمهم تقريباً ينتمي إلى الطبقة الأولى. وفي بلادهم واحات قليلة، والمعيشة فيها متواضعة. ويمكن وصفهم بأنهم ليسوا عدوانيين. ولديهم عادات خاصة. ولهجتهم المحلية مستمدة من اللغة العربية.

وأكثر ما يلفت نظر المرء، بالنسبة إلى المهرة، أن أجسامهم ضئيلة الحجم، ويشبهون الأقزام تقريباً. ولا يلبسون سوى ما يستر العورة فقط.

وغرب حضرموت، مثل باقي مدن ومناطق اليمن الاخرى، بلاد جبلية وزراعية. وإضافة إلى البذور التي تزرع في حقول واسعة، تزرع أيضاً الفواكه والتبغ.

والمكلا تتجر باللؤلؤ والبخور والعنبر وأسماك القرش، وهي تجارة يطرد نموها كل عام. ويبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة تقريباً، وتتمتع بمناخ بارد نسبياً.

الدكتور بول هاريسون يكتب، العام ١٩٢٥،

عن الإمارات المغرية والجذابة:

ضيافة لا حدود لها، وكبرياء لا ينسى

في كل مرة، يزور فيها الدكتور بول هاريسون، أحد الأعضاء المهمين للإرسالية الأميركية، الإمارات، أو «ساحل القراصنة» كما كان يسميه، يكتشف أن هؤلاء الناس، وتلك المدن والقرى والموانئ، يحتاجون إلى زيارات وزيارات.

فبعد زيارات هاريسون الأولى للإمارات، كان يظن أن مفكرته الصغيرة، التي امتلأت بعشرات الملاحظات والانطباعات، كافية لكتابة مقال مهم عن هذه المدن، في مجلة الإرسالية الأميركية، «الجزيرة المنسية». لكن الإمارات«الاكثر إغراء وجاذبية» كما يقول، تغرية أكثر بتكرار اكتشاف هذه الأرض.

وهكذا كان هاريسون يعود إلى الامارات يطالع ويسجل، ويمارس أيضا عمله التبشيري والطبي، بالحماسة والنشاط نفسيهما.

وفي شباط/فبراير من العام ١٩٢٥، لم يتردد الطبيب هاريسون في قبول زيارة إلى الإمارات. وما هي إلا أسابيع قليلة، حتى ملأ مفكرته بعشرات الانطباعات الجديدة، ودونها في مقال، كتبه لمجلة الإرسالية، في العام نفسه، قائلاً:

في كثير من النواحي، يظهر لنا ساحل الإمارات أنه الاكثر إغراء

وجاذبية من جميع المناطق والمدن غير المأهولة في الجزيرة العربية.

وعرب ساحل الإمارات رحالة مشهورون ونشيطون، يجلبون معظم بضائعهم من الهند، بواسطة السفن الشراعية، عل الرغم من أن البواخر البريطانية، تأتي إلى الساحل كل أسبوعين. كما أن قواربهم البحرية، تقوم ببيع التمور لمناطق كثيرة على ساحل الخليج، بل تصل إلى سواحل أفريقيا والهند.

ولعل شجاعة عرب الساحل ونشاطهم، يمكن أن يستشفهما الزائر من عشرات المدافع القديمة الصدئة، التي تمكن مشاهدتها في مدن مختلفة، والتي تعبر عن ذكريات الأيام الماضية.

وإلى جانب الشجاعة، وهي مسألة واضحة بارزة لأي زائر، تمكن ملاحظة ميزة مهمة لدى عرب الساحل؛ فالجزيرة العربية هي بلد الضيافة، ولكن الضيافة في ساحل الإمارات نادراً ما تجد مثلها في أي مكان في الجزيرة العربية.

ففي أحد الأيام، كنا نسير في الصحراء، لزيارة صديق، يبعد مكانه عن مدينة دبي حوالى ميلين. وتوقفنا في أثناء سيرنا عند كوخ صغير، مصنوع من سعف النخيل، لشرب الماء، وكان ذلك اليوم حاراً جداً، إلى درجة يصعب معها المشي على الأرض، لالتهابها بحرارة الشمس.

وفي أثناء توقفنا، فرح مضيفنا برؤية أجنبي جاء إليه. ولذلك، قام بسرعة، وأحضر رطباً جاهزة وحليباً، إضافة إلى الماء.

وأتذكر أنني توقفت لساعات عدة في منزل، لم يكن صاحبة موجوداً فيه. ولم يكن هناك أحد في البيت، سوى بعض الخدم، الذين يعملون فيه. ومع أن هؤلاء الخدم، لم يكن لديهم إذن بالسماح بالدخول إلى المنزل، إلا أنهم جهزوا لنا، بسرعة، أفضل ما يستطيعون تدبيره من طعام، إذ أعدوا وجبة بسيطة، مكونة من الأرز والسمك؛ وكانت هذه الوجبة غداءهم أصلاً. ولذلك، كانت النتيجة أن الخدم أصبحوا جياعاً، لا يجدون ما يأكلونه.

وعلاوة على الضيافة، يمكن ملاحظة قضية تستحق الاهتمام فعلاً. فلايوجد على طول ساحل الإمارات علم أجنبي، يرفرف فوق سطح قنصلية أو مبنى تلغراف أو غير ذلك. فعرب الساحل يرفضون السماح حتى بتأسيس مكان حجر صحي، كما رفضوا كل العروض الأجنبية لإقامة محطة تلغراف عادية.

وفي أثناء زيارتنا إلى الإمارات، وجدنا هندياً مسلماً، سمح له بالإقامة هنا، والعمل كوكيل لشركة بواخر. وحكى لنا كيف أنه عندما طلب إحضار (ماكينة) قارب، رفض طلبه بشدة. وعرف أن السبب الحقيقي، هو خوف العرب من أن تكون لهذه الآلة نتائج مضرة في المستقبل، إذ ستتمكن، بعدها، القوى السياسية الغربية من الحصول على وجود في الساحل. ولذلك، أخبر الهندي بأن «إحضار الماكينة سيحدث ضجيجاً في البحر، الأمر الذي سيرعب الأسماك». . .

وربما للسبب نفسه، وجدنا صعوبة شديدة في الحصول على ترخيص لعمل الإرسالية وافتتاح عيادة دائمة في الإمارات. وأتذكر أنني عندما أخبرت أحد تجار دبي البارزين عن صعوبة الحصول على ترخيص لعمل الإرسالية، قال لي بحدة :لماذا نسمح لكم بالمجيء، وفتح عيادة طبية هنا؟ إذا فعلنا ذلك، فسيأتي بعدكم الإنكليز مباشرة، ويطلبون فتح قنصلية

ومكتب تلغراف وغير ذلك، وسيأتي غيرهم. . . وسنكون نحن، بعد كل ذلك، لا شيء، مجرد عبيد للأجانب.

وعلى الرغم من هذا الكبرياء لدى عرب الساحل، إلا أن فرحهم لقيامنا بالعلاج الطبي، لم يستطع أحد إخفاءه. فخلال أسبوعين، قمنا بعلاج أكثر من ١٥٠ شخصاً يومياً. ولو كانت استعداداتنا أفضل، لقمنا بعلاج مئات آخرين. وكان أكبر دليل على نجاحنا هو خروج النساء من بيوتهن، للمرة الأولى، واحتلالهن مقر العيادة لأوقات طويلة.

وهناك تجارب ومشاهدات أخرى، سأبقى محتفظاً بها في ذاكرتي فقط.

وفعلاً، أبقى الطبيب المشهور بول هاريسون بعض الذكريات عن الإمارات في مذكراته الخاصة، ليزيد من رصيد الاكتشافات عن هذه البلاد المغرية والجذابة.